خلف جابر

أسطورة

أحمد خالد توفيق

مكتبة
t.me/soramnqraa

مكتبة
t.me/soramnqraa

اسطورة

أحمد خالد توفيق

جابر، خلف
اسطورة أحمد خالد توفيق : مقالات / خلف جابر
القاهرة : كيان للنشر والتوزيع، 2024.
152 صفحة، 20 سم.
ردمك : 978-977-820-229-٨
١–المذكرات في الأدب العربي
٢– توفيق، أحمد خالد، ١٩٦٢–٢٠١٨.
٣– المقالات العربية، المذكرات.
ب– العنوان : 818.03
رقم الإيداع : 28270 / 2023
الطبعة الأولى : يناير 2024.
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة ©

مكتبة
t.me/soramnqraa

كيان للنشر والتوزيع
إشراف عام:
محمد جميل صبري
نيفين التهامي

Osturat Ahmed Khaled Tawfiq (The legend of Ahmed Khaled Tawfiq) (c) 2023, Originally published as a Storytel Original

٤ ش حسين عباس من شارع جمال الدين الأفغاني- الهرم– محافظة الجيزة.
هاتف أرضي: 0235918808
هاتف محمول: 01000405450 – 01001872290
بريد إلكتروني: kayanpub@gmail.com
info@kayanpublishing.com
الموقع الرسمي: www.kayanpublishing.com

مكتبة
t.me/soramnqraa

اسطورة

أحمد خالد توفيق

خلف جابر

كل الشخوص صادقون إلا راوي الحكاية.

الفصل الأول

الليل وقت مناسب للكتابة وظهور العفاريت، غير أن الأشباح يفضلون الظهور في ساعات الظهيرة أحيانًا. أما الكتَّاب فأغلبهم يرون الليل وحده مناسبًا للإلهام. من بينهم الدكتور أحمد خالد توفيق، الذي اعتاد أن يكتب لمدة 4 ساعات بعد منتصف الليل، تحديدًا بعد أن ينام الجميع، ففي الليل تسكن حركة البيت، تتوقف السيارات عن نداءاتها، يخفت صوت الجيران وأطفالهم، ومن ثم تخرج شخوصه آمنةً من رأسه إلى الورقة البيضاء.

جلس العرَّاب أمام مكتبه شاردًا. دقت الساعة معلنةً الثانية عشرة صباحًا، فانتبه إلى أن ثمة شيئًا طارئًا. الوقت يمر كحبات رملٍ بين أصبعَيه، بينما الأفكار تطل من رأسه مبتورةً. فسُدَّة الكاتب أو writer block التي أصابته، تجعل الأمر في رأيه «شبيهًا بجفاف عصارة الحياة في جسده».

استعدَّ الدكتور أحمد خالد توفيق لتلك الحالة مسبقًا. أعد ملفًّا للأفكار على جهاز الكمبيوتر الخاص به، سجَّل فيه ملاحظاتٍ كان قد دوَّنها في ورقة لا تُفارقه أبدًا. ملأها بجملٍ قصيرة، كُتبت بخطٍّ سيئ، لا يمكن لغيره قراءتها، وربما لا يستطيع هو أيضًا إن مرَّ وقتٌ طويل دون نقلها. الآن لمَّا أصابته سدة الكاتب، انتبه إلى كنزه المُخبأ في

جهازه الخاص، فتحَه وأخذ يقرأ لساعةٍ أخرى، وعلى ضخامة الملف الذي تجاوز المئتي صفحة، إلا أنه لم يُسعفه.

بقِي العرَّاب يستجدي الأفكار، ينظر في ساعته كأنه على موعد، يمشي في الغرفة دون وجهة، ثم اتَّجه إلى النتيجة المُعلقة على الجدار، لينتزع ورقةً اليوم؛ ليقرأ الحكمة المكتوبة أسفلها، علَّها تصلح مدخلًا لقصةٍ أو مقال. لكنه وبعد أن نزع ورقةً يوم «الإثنين» المُنتهي منذ ساعات، فوجئ أن الورقة التالية كانت ليوم الأربعاء، دون خطأ في ترتيب تواريخ الشهر، فقال بعدما تأكَّد أنه انتزع واحدةً فقط، إن ورقة «الثلاثاء» ربما سقطت سهوًا أثناء إعداد النتيجة، فغياب ورقة اليوم لا يعني شيئًا بالتأكيد.

يُحب العرَّاب التشكك، يؤمِن أن الثقة الكاملة هلاك كامل، ومن ثم جلس يمارس لعبة الاحتمالات، فقد يكون غياب ورقة النتيجة صدفةً، أو ربما مزَّقها شخص وهو يعبث في مكتبه، لكنه لم يمنع نفسه من الشعور ببعض القلق. فالصدف تُخبرنا بأشياء لا نُدركها إلا بعد فوات الأوان، فثمة علاقة بين الصُّدف والليالي التي تحمل أنباءً غير سارة.

رن هاتف المنزل، نظر إلى ساعة الحائط، فوجدها الثانية صباحًا. لم يعتد أن يتصل به أحد في وقت متأخِّر من الليل، تردَّد لحظات ثم سرعان ما وضع السماعة على أذنه:

- آلو.

- إزيك يا دكتور أحمد؟

- مين حضرتك؟
- إنت ما تعرفنيش، لكن أنا أعرفك كويس.
- طيب ممكن أعرف مين حضرتك ومتصل ليه في الوقت دا؟
- في التليفون!.. ما اعتقدش إنه ينفع.. هستناك بكرة بعد أذان العصر عند استاد طنطا، مكان ما بتِقَف بعربيتك لوحدك.
- وانت ليه مُتأكد إني هاجي.
- هتيجي.. الموضوع خطير يا دكتور ولازم نتقابل في أسرع وقت.

شعر الدكتور أحمد أنه يعرف صوت المُتصل، وإن لم يُميز صاحبه، لكن ذلك لم يطمئنه إلى الذهاب في الموعد المُحدد. قال إنه لن يذهب للقاء شخصٍ يجهل هويته، لكن المتصل، أكَّد له أن الأمر خطير، وحضوره ضروري، كذلك فلن يُعطله كثيرًا، فغياب يومٍ عن عمله الجامعي لا يعني نهاية العالم. انتبه العراب إلى معرفة الآخر بمواعيد عمله، لكن هذا أيضًا أمر معروف بالنسبة للكثيرين، فما كان من العرَّاب إلا أن قال له في توجُّس:

- أكيد أنا مش فاضي لهزار حضرتك.. وأتمنَّى ما تتصلش في وقت متأخر تاني.

لكن الآخر أنهى المكالمة معه قائلًا: هستناك بكرة يا دكتور.. ورقة النتيجة اللي بتدور عليها معايا، أهو على الأقل ترجع لك.

***

بعد أذان العصر، كان العراب يقف أمام استاد طنطا. لم يقطع شروده سوى ذلك الصوت.

- اتأخرت.. عارف إنك بتحب الالتزام بالمواعيد

سرعان ما استدار ناحيته، على وجهه ابتسامة انزوت تحت هول المفاجأة. هو لم يجد أمامه وحشًا قبيحًا، أو عفريتًا تخرج النار من أُذنيه. لكن حسب قوله في «أسطورة رفعت»، إن «أشنع مسخ يمكن للمرء أن يلقاه هو نفسه» وهذا بالضبط ما وجد!

كان يُشبهه تمامًا، بأنفه الكُمثرية التي تحمل نظارةً سميكةً، وعينَيه الضيقتَين اللتَين يعلوهما حواجب عريضة، حتى تسريحة شعره التي تُشبه موظفي المصالح الحكومية، وكذلك هيئته التي تُناسب مدرسًا أولَ للُّغة العربية. الآن عرف أحمد خالد توفيق أن الذي وصله عبر الهاتف كان صوته، لكنه خرج من حنجرة رجل آخر.

لم يترك العراب نفسه كثيرًا أمام تلك الحيرة، فسرعان ما خرج سؤاله عفويًّا:

- إنت مين؟

فجاءه الرد غير متوقع: أنا أحمد خالد توفيق.

ضحك العراب بصوتٍ عال، وهو يحاول استجماع الرد المناسب، لكن سعاله الذي خرج مُتحشرجًا جعله يضحك ضحكاتٍ متقطعةً، وهو يقول: عملتها قبلك.. أظن هتقول إن ضخامة حجم الكون غير المُتناهية، خلِّت مجرَّات عديدة تمر بنفس الظروف اللي مرَّت بيها مجرتنا، والمجرات دي فيها شموس، وحول كل شمس كواكب،

يمكن كوكب فيهم مر بنفس ظروف الأرض، وبكدة بقى في الكون ألف «رفعت».. أقصد ألف أحمد خالد توفيق في الكون في اللحظة دي.

- دا بالظبط اللي كنت هقوله.. بس مش غريبة.. ما احنا يُعتبر واحد!

ردُّ الآخر جعل الدكتور أحمد خالد توفيق يضحك مرةً أخرى، وهو يقول: خليني أقول لك على حاجة.. القصة اللي انت بتقلدها دلوقتي أنا اللي كتبتها، مقابلة رفعت إسماعيل لنفسه في العام 1970، كانت فِكرتي في الأساس، أنا اللي خليت الشخص يتصل بيه على الهواء في الإذاعة، ويقول إنه هو رفعت الحقيقي، ويحكي ذكرياته، وأنا اللي نسجت الصراع والمشاكل اللي اتعرَّض لها رفعت، وأنا برضو اللي خلقت لها الحل.. فهل تفتكر إني هصدق كذبتك دي؟

- مش هنختلف في كونك انت اللي كاتب القصة.. لكن اللي ما تعرفوش إنها فكرتي في الأساس.. كانت محاولة للتواصُل معاك.. كتير كنت بمَلِّي عليك الأفكار وانت نايم، علشان تقبل بعد كدا فكرة وجود عوالم موازية، ووجود نسخة من كل شخص، وإن ممكن نسخة من النُّسخ دي تيجي في أي وقت وبأي شكل، وتحاول تستبدل العوالم مع نسخة تانية!

قطَّب العرَّاب جبينه غاضبًا، هو قد يقبل بوجود نسخةٍ تُطابقه، تشاركه الملامح، أو تقترب من طباعه، أما الحديث بشأن أنه يُمليه أفكاره فهذا مرفوض. حذَّره من تكرار كلامه مرةً أخرى، فلم يُحاول الآخر تأكيد القول أو نفيه، بل تجاوزَه متسائلًا:

- دكتور أحمد.. انت بتؤمن بوجود عوالم موازية ولا لا؟
- أه أومن بوجود عوالم أخرى غير عالِمنا.. لكن مبدورش عليها.
- يبقى ممكن تؤمِن إن في بشَر عايشين هناك، عارفين بوجودكم وبيدوروا عليكم.. وأنا عشت سنين بدوَّر عليك.. أنا بس عايز أأكِّد لك إن وجودي مالوش علاقة بفرضية التوءم أو التوءم السيامي، وإن كانت النسخة الجينية هي الفرضية الأقرب للصح.

تحرك العراب خطوات نحو سيارته، ثم التفت له قائلًا:

- فلنفترض إني اقتنعت بكلامك.. إنت عايز مني إيه؟

نظر الآخر في عينَي أحمد خالد توفيق لثوانٍ. اقترب منه كأنه يتحسس موضع الكلام في نفسه، ثم سرعان ما أدار ظهره ماشيًا بضع خطوات، وهو يقول:

- بص يا دكتور أحمد، كل واحد فينا بيعيش حياة مُملة.. لكن في نفس الوقت كل واحد فينا بالنسبة للتاني حياة مختلفة، عالم جديد، فيه مفاجآت واختيارات غريبة.. علشان كدا فكرت إننا نبدل الأدوار، انت هتسافر للعالم بتاعي هتعيشه بكل اللي فيه من مغامرات.. وأنا هفضل مكانك هنا.. وبكدا نقدر نكسر حالة الملل اللي عايشينها.

وقف العرَّاب مشدوهًا مما سمع، فارقت البسمة وجهه، ولم يبقَ غير الغيظ يكسو ملامحه. تذكَّر أنه في عام 1998 جعل رفعت إسماعيل يواجهَ نفس الأمر، أرسل إليه نسختَه تُطالبه بالرحيل إلى

عالم آخر، فرفض، وهو لا زوجة له ولا أبناء. فكيف يتخيل ذلك الآخر، أنه سيترك أسرته ويسافر؟

- لكن نسخة العالم الآخر من رفعت إسماعيل ما نجحتش في خطتها، وفي النهاية كل واحد منهم فضل في العالم بتاعه.

قالها الدكتور أحمد خالد توفيق، وهو يحاول مجاراته في الحديث. حينها انفرجت أسارير الآخر وهو يقول: صحيح، وأنا اتعلمت من أخطائه.. علشان كدا اخترت أقصر الطرق علشان أوصل لك. ما حاولتش تدمير حياتك زي ما عمل قرين رفعت.. وخلينا نتفق على مُسمَّى القرين، وإن كنت شايف إن أقرب توصيف هو الآخر، فأنا أحمد خالد توفيق زيك بالظبط.. على أي حال أنا مش حابب أجبرك على حاجة، وشايف إن الأفضل نحتكِم للعقل.

سأله العراب عن سر تأكُّده من قبوله بالسيناريو الذي رسمه، فقال لأنه ليس أمامه غير هذا، كما أنه الأحق بحياة أحمد خالد توفيق. ففي العالم الآخر، سبقه وقت الميلاد بدقائق، أي إنه قرينه الأكبر وحريٌّ به أن يُطيع أوامره، فإن شِئنا الدقة فهو الدكتور أحمد خالد توفيق الحقيقي. أحس العراب أن المسألة أكبر من تبديل الأماكن في عوالم مختلفة، بل هو صراع على الهوية، أيْ مَن فيهم الحقيقي ومَن المزيف.

طالته نيران الغضب، وهو ما ظهر على عينَيه الجاحظتَين، وقبضة يدِه المضمومة استعدادًا للقتال، لولا أن نصحه الآخر أن يتعلَّم من أخطاء رفعت إسماعيل أمام قرينه، فخطط القتل بالخنق والرمي بالرصاص، والقتل من علٍ، أو حتى بالسُّم، لن تُجدي نفعًا. لا سيما أنه يقرأ أفكاره بمجرد النظر إلى عينَيه.

- لا إنت مجرد شخص نصَّاب.. وأنا هبلغ الشرطة.

قالها الدكتور أحمد خالد توفيق مُحاولًا تهديده، فردَّ الآخر في ثبات:

أظن إنك محتاج تِهدا يا دكتور.. تفتكر هيصدقوك.. وحتى لو الشرطة صدقتك هتعمل إيه مع الصحافة والتلفزيون.. ما أظنش إنك هتبقى مبسوط بخبر التشكيك في قواك العقلية.. تقدر تقول لي هتقنعهم إزاي؟ هتطلب تحليل دي إن إيه مثلًا، هيلاقوه مُتطابق.. هتأكد لهم إنك الشخص اللي هم يعرفوه وهتحكي لهم عن ذكرياتك معاهم، بسيطة، سبق وقلت لك إني أعرف كل حاجة عنك.. وكل واحد فينا يعرف عن التاني اللي ما حدش يعرفه غيره، دا باستثناء رفعت إسماعيل، طبعًا هو أكتر شخص يعرف أحمد خالد توفيق.

لمعت عين الآخر، وكأنه اكتشف الحل لتوِّه، ثم قال: عندي فكرة.. إيه رأيك لو خلينا الشخصية الروائية هي اللي تقرر مصير كاتبها ولو لمرةٍ واحدة؟

- مش فاهم؟
- أقول لك.. دايمًا إحنا اللي بنحدد مصير أبطالنا، نخلقهم على الورق ونصنع لهم العالَم اللي إحنا شايفينه مناسب ليهم، نكون لهم أسرة.. أو نخليهم يعيشوا في وحدة، وممكن كمان نقتلهم لو حابين.
- برضو مفهمتش تقصد إيه؟

- ببساطة.. إيه رأيك لو خلينا الحل في إيد رفعت إسماعيل؟ وهو اللي يقرر مين فينا يستحق إنه يفضل في العالم الأرضي، ومين اللي يرحل للعالم الآخر.

بدا على العرَّاب استحسانه الفكرة، رغم أنه يخاف رفعت إسماعيل وتصرفاته الحمقاء. قال الآخر إنهما سيتفقان على موعدٍ يذهبان فيه إلى منزل رفعت، يَعرضان عليه الأمر، ويطلبان منه أن يُقيم لهما مناظرةً، أي يطرح على كلٍّ منهما أسئلةً متعلقةً بحياة أحمد خالد توفيق، يستطيع من خلالها أن يحكم بينهما.

استند الدكتور أحمد خالد توفيق إلى سيارته، صمت لدقائق، ثم سأل عن وسيلة السفر إلى العالم المُوازي. قال الآخر إنه سيتدبر الأمر وقتها. راح العرَّاب يفكر في عواقب قراره، فإن رفض لا يدري ماذا سيفعل ذلك المخبول في حياته، وإن قبل فقد يفقد هويته إلى الأبد. كما أن هزيمته في المناظرة تعني خسارته لحياته فقط، أما رفضه فقد يُعرض أبناءه وزوجته للخطر. أيضًا تذكر الساعات التي قضاها يُعاني سدة الكاتب، واحتياجه لمغامرةٍ تصلح أن تكون عملًا أدبيًّا. فتحركت داخله روح المغامرة، وأحسَّ برغبة في كشف سِر القادم من عالمه الموازي.

سأل العراب عن موعد المناظرة، فقال الآخر: يوم التلات.. يعني بعد أسبوع من دلوقتي.

اتفق الاثنان على أن يلتقِيا يوم الثلاثاء في نفس المكان، ليذهبا معًا إلى رفعت إسماعيل وتعاهدا على ألَّا يذهب أحدهما بمفرده، ثم انصرف كل منهما في طريقه. ركب أحمد خالد توفيق سيارته عائدًا

إلى منزله، بينما رفض الآخر أن ينقلَه إلى محلِّ إقامته، قائلًا إنه سيتدبَّر أمره بنفسه. ولكن قبل أن يتحرك أحمد خالد توفيق، نظر إلى الآخَر متسائلًا:

- فين ورقة النتيجة؟

فأجاب الآخر: خلِّيها للمرة الجاية.

في الطريق بقِي العرَّاب يفكر في ذكرياته التي قد يسأله عنها رفعت إسماعيل، عازمًا على أن يستعين بذاكرة من عرفوه. هو يعرف أن مصيره الآن أصبح في يد رجلٍ ثرثار لا يملُّ الكلام عن نفسه، فعصا مكنسة صلعاء تُدخِّن كبرلين حين دخلها الحلفاء، هي من ستقرر وجوده أو فناءه.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل الثاني

البيت يعرف كل شيء..
البيت يذكر كل شيء..
البيت لم ينسَ وجوهنا الطفلة.. ويُدرك أننا سنعود لا محالة..
البيت ينتظرنا بعد كل هذه الأعوام..
وبوابته الصدئة مفتوحة من أجلنا.. فهل ندخل؟

لا أظن أحمد خالد توفيق يصف بيت الخضراوي فقط. البيت المليء بالأهوال، الذي سكنته «شيراز» ودخله رفعت إسماعيل؛ فكل البيوت تعرف وجوه أصحابها الطفلة، تُلقي عليهم السلام صباحًا، بينما هم غافلون، يُغلقون أبوابها المشرعة كأحضان أم، تاركين إيَّاها دون كلمة وداع. لا يفهمون إشاراتها، ولا يلمَحون خطوات الزمن عليها، فالبيوت تشيب مثلنا، تضعف عظامها وتئن. تهتز أحيانًا إذا ما أكل النمل عمدانها، تنكبُّ على وجهها، بعدما تختار موعدًا نكون فيه خارجها، وكثيرًا ما تموت واقفةً إذا ما هجرناها.

وصل العرَّاب إلى منزله هائمًا، ليس أمامه أو خلفه غير صوت الآخر الذي يُهدد وجوده، الطامع في سلب هويته. راجع الحديث في عقله طوال الطريق، فإن كان المؤمنون يفكرون في يوم القيامة، فهو لا يشغله الآن سوى يوم الثلاثاء المقبل، فعالَمه البسيط هو جنته التي يبتغيها، أما النار فهي العالم القادم منه نُسخته المزيفة.

ركن سيارته أمام بيته، ثم وقف ناظرًا إليه لدقائق، تأكد من طوابقه الأربعة. لاحظ علاقته ببيوت الجيران، أيهما أعلى منه، وأيهما أقل طابقًا، وأيضًا أين موقعه من شارع ثروت؟ رآه يحمل على صدره رقم 9، كسجينٍ مُقيد الأرجل، مُجبر على حمل سكانه. تحسَّس اللافتة المعدنية بيده، ثم عبر المدخل متجهًا إلى السلم، قاصدًا الطابق الرابع. كانت الدرجات المتراصة بارزةً وصلبة، كأضلُع عجوز، بينما هو يصعد درجتَين أو ثلاثًا ثم يقف ليستريح.

لم يشعر أحد بدخوله الشقة، كما لم يكن في حاجةٍ إلى أن يتأكد من وجود أسرته، فهو يريد أن يختلِيَ بنفسه. دخل مكتبه في صمت، جلس أمام الكمبيوتر كعادته، لكن ليس للكتابة، فلا هذا وقتها، ولا الظروف الطارئة تُناسب الإبداع. راح يتحسَّس كل شيءٍ حوله، أعطى ظهره إلى مكتبةٍ صغيرة تحمل التُّحَف والأنتيكات، سواء التي اشتراها من خارج مصر، أو أهداه إيَّاها أصدقاؤه. ناظرًا إلى مكتبتَين أخريَين، تنام على أرففها المراجع والكتب، والروايات والقصص الأجنبية والعربية.

جلس أحمد خالد توفيق يتفحَّص كل شيءٍ على حدة، يُطيل النظر، ويعيد التفكير في ذكرياته مع الأشياء. فما إن رأى صورته المعلقة خلف مكتبه، التي تجمعه طفلًا صغيرًا بوالدتِه، حتى تحرك الطفل داخله. نهض من ذكرياته البعيدة. خرج من البيت ذاهبًا إلى الحضانة، ثم رجعَ رجلًا في يده حقيبة جلدية سمراء، داخلها أوراق العمل. الذكريات جعلته يشَم رائحة والده في أركان البيت، سمع صوت سعاله وضحكاته، بينما أمُّه وإخوته البنات يُنادينه للطعام.

لم يفكر العرَّاب في إمكانية أن يسأله رفعت إسماعيل عن والدَيه وذكرياته معهما. لكن على أي حال، الحنين لا يعرف الخصوصية، أو أن ثمة وقتًا مناسبًا لمجيئه، فثوبٌ قديم أو طشة ملوخية قد تُعيدك إلى ما مرَّ من عشرات السنين، مستحضرًا في ذاكرتك أناسًا ظننتَ أنك نسيتَهم.

وقف أمام مكتبه، بعينَين محملتَين بالدموع، وقلب خضبته أطنان من التبغ، كأنه يراقب سنينَ من القراءة والكتابة والضحك، والسير في شوارع طنطا، والسفر إلى بلدان العالم. تحرك للخلف خطوةً وفتح دُرج المكتب، ثم أخرج ألبوم صور صغيرًا. فتحه فكانت أول صورة لرجل يرتدي بدلةً وكرافتةً، واضعًا يده على كتِف ابنه الصغير، بينما يقف الطفل أمامه ضامًّا يدَه إلى صدره، كمن يصلي في محراب أبيه، أو كمن اكتفى واحتمى به من العالم.

***

خرج الطفل الصغير من الصورة، بقميص نصف كم، وشعر مفروق، زامًّا شفتيه، يبدو الخجل على وجهه، فهو قليل الكلام، قليل الحركة، هادئ الطبع. جاء إلى الدنيا في 10 يونيو 1962، كان ميلاده بمثابة عيد لأسرته. هو الولد الوحيد على ثلاث بنات، أُلفت وإيمان وأميرة، كلهن يكبرنَهُ بعددٍ لا بأس به من الأعوام، فأخته (أميرة) أصغر شقيقاته والأقرب إليه تكبُره بستة أعوام. هذا الطفل اسمه أحمد خالد توفيق.

كان طفلًا شديد الخوف، يُؤوِّل الخيالات ويُحركها، فطرف ثوبٍ أسود يصلح أن يكون عفريتًا أو شبحًا يسرق الأطفال ليأكلهم، وأي مجهول لا تطوله العين، هو بالتأكيد مصَّاص دماء أو قاتل محترف. لذلك لجأ الطفل إلى خلق الخوف بدلًا من انتظاره. ذهب يكتب مخاوفه على الورق، يُخرج الأشباح من داخله، يُحررها فتذهب بعيدًا عنه. جعل مصاصي الدماء يتحركون أمامه لا خلفه، فهو يرى في أدب الرُّعب دائرةً سحريةً يصنعها حول أسرته وحول نفسه، أداة تُشعره أنه خلف المدفع لا أمامه. فكتابة الرعب جعلته يتطهَّر من مخاوفه، حتى وإن بقي يشعر بالخوف كلما مرَّ بجوار سور المدرسة.

يذكر أحمد خالد توفيق أول حادثة رعب تعرَّض لها. سيحكيها لو سأله عنها رفعت إسماعيل في المناظرة. كان عمره وقتها خمسة أعوام، تحديدًا في أحد أيام يونيو 1967، وقت كانت مصر تُعاني الهزيمة وضياع الهيبة والانكسار، وفقدان الثقة في البطل الأسطوري الذي جاء ليُخلصها من الاحتلال ويوحِّد العرب. تلك القصة التي جرت أحداثها في غرفةٍ ضيقة عامرة بالبراغيث تحت سُلم حضانة (حماية الأسرة) بطنطا. كان بطلها عم (أبو اليزيد) البواب النوبي العجوز الطيب القلب، الذي أنقذه هو وخمسةً من زملاء الحضانة، عندما جن جنون عبد الناصر، فأرسل جنوده ليسحبوا الدم من بطون الأطفال.

يومَها سحبَهم عم (أبو اليزيد) إلى غرفته ونظر حوله بحذَر ثم قال لهم هامسًا بلهجته النوبية الساحرة وبياض عينَيه الأصفر يلتمع: إنتي تقعدي ساكتة لاهسن عبد الناصر ياخد دم من بطنك!

جلس أحمد مع غيره من الأطفال، صامتين لا يُحركون ساكنًا، مُتخيلين ما حدث للتُّعساء الذين يصرخون في الخارج، بينما رجال عبد الناصر يُقيدونهم ويدسون الخراطيم ماصةَ الدماء في أحشائهم. جاءت أُمه بعد ساعةٍ تركض إلى الحضانة. كانت مذعورةً ومنهكةً، اصطحبتْهُ إلى البيت، مجتازةً الشوارع الخلفية، هروبًا من مصَّاصي الدماء الحكوميين. في الطريق رأى الطفل نساءً كثيرات يهرولن، على وجوههن ذات التعبير الذي رآه على وجه أمه، فالحزن كان هو القاسم المشترك بين أمهات ذلك الزمان.

عرف الطفل من أمِّه، أن جيشنا هُزم في سيناء، وأن هناك أزمةً في الدماء، لذلك أمر عبد الناصر رجالَه أن يمرُّوا على المدارس، ليسحبوا الدماء من بطون الأطفال. لم يكن الأمر في حقيقته سوى شائعة، وجدت في الظرف السياسي أرضًا خصبةً، فنبتت ونمت وانتشرت بين الناس، ورغم أنه كبر وأدرك حقيقتها، إلا أنها ظلّت دليلًا على صعوبة كتابة أدب الرعب في بلد مرعوب. كما بقيت نكسة 1967 هي قصة الرعب التي لم ينسَها، ففي 12 فبراير 2015، أي بعد مرور 48 عامًا على ذلك الحادث، سُئل عن زمن يختاره ليعيش فيه، فقال: أي زمن بحيث أموت قبل يونيو 1967.

استند العرَّاب إلى كرسي المكتب الصغير، نظر إلى الكتب المرصوصة أمامه، رآها تخرج من رحم مكتبة والده، الذي طالما كان مُحبًّا للقراءة والفنون. تذكَّر أنه دائمًا ما كان يجده مُمسكًا بأحد كتب التراث والذخائر، فما كان منه إلا أن اقتدى به، وأقبل على الكتب بنهَم، كما يُقبل أقرانه على الحلوى. يقرأ كل ما يلقاه في طريقه، حتى

وإن كان لا يُناسب طفلًا في عمره، فدائمًا يقرأ الطفل دون انتقاء، كعهد الأطفال إذا أخذهم الشغف تجاه شيءٍ ما، فأخذوا يتلمَّسونه ويتذوَّقونه، حتى وإن لم يكن يصلح للَّمس والتذوق. قرأ ما يُناسب طفلًا في عمره وما قد لا يُناسبه، لكنه كبر الآن، وأصبح أكثر ميلًا للعلم منه لقراءة الأدب، ربما لأنه صار طباخًا، فصار من الصعب أن يُحب طهو الآخرين، وإن بقي يُخصِّص جزءًا من وقته لقراءة المنسي قنديل، ويوسف زيدان، ومحمد المخزنجي وعلاء الأسواني.

بقي أحمد خالد توفيق مدينًا لنشأته في بيتٍ يعشق القراءة، فقد كان والده رجلًا مُثقفًا، علَّم نفسه بنفسه. قال عنه إنه كان راقيًا أشبه بلورد بريطاني، عمل مديرًا لشركة، في عصرٍ كان مديرو الشركات يعيشون من اليد إلى الفم، ويموتون دون أن يتركوا لأولادهم ميراثًا إلَّا التربية الحسنة.. ومئات الكتب في المكتبة، التي ما كان يقدر على إنفاق كل هذه الثروة في شرائها، والتي كبر ووجدَها عنده بالفعل، فصنعت ثقافته. كما شجَّعه والده على الكتابة، فلم يعترِض طريقه، ولم يخشَ تأثيرها على دراسته، وإن أخذ عليه انشغاله بالشعر العاطفي في مرحلة المراهقة.

كان أحمد طفلًا شديد الرومانسية، بمعنى أنه دائم الهروب من الواقع، عبر تخيُّلاته وعفاريته والأشباح التي سكنت ذاكرته. تغلَّب بالرعب على رتابة الحياة ومللها، وكسر روتينها واعتياديتها. ومن ثم كان الرعب القوطي، المُتميز بأجوائه الغامضة ويسودُه عنصر التشويق، هو بوابته التي يعبرها خروجًا من عالم الأطفال بتفاصيله الساذجة والكبار بمشاكلهم المُملة، إلى عالم السحر والسير على

حد السيف، والوقوف ما بين الحياة والموت، وتحضير الأرواح، بل وتجريب الموت والعودة منه مرةً أخرى.

يعرف رفعت إسماعيل كل ذلك، يعرف أين يختبئ الطفل عن أعين أُسرته، وكثيرًا ما رآه خائفًا في فراشه من العفاريت، يُحاربهم بقراءة القرآن أحيانًا، والهروب إلى حضن أمِّه أحيانًا أخرى. لكن هل يعرف شيئًا عن الأحلام التي يراها أحمد خالد توفيق في منامه؟ وإن كان يعرفها، فالمُهم عنده ألا يسمع بها الشبح الذي يُهدِّده بسلب عالمه، فقبل قليلٍ أخبره أنه هو مَن ألهمه بقصة «أسطورة رفعت»، فهل أيضًا شاركه في الأحلام المترجمة؟ نعم يرى أحلامًا مترجمةً، ما إن تذكرها الآن حتى سار خطواتٍ قليلةً مبتعدًا عن مكتبه، وهو يتمتم قائلًا: عالم النفس فرويد يقول، إن من يرى أحلامًا ملونةً فهذا دليل على اضطرابٍ نفسي، فماذا إذا عرف أنني أرى أحلامًا مترجمة؟ نعم أحلام مترجمة بحبكات مذهلة، فالمرات القليلة التي استطعت فيها كتابة ما رأيته كانت فكرةً جميلةً جدًّا.

كانت أحلامه عبارةً عن أفلام سينمائية يتذيَّلها شريط ترجمة صغير، وكان يرجع لوالده الفضل في ذلك، فولع أبيه بالسينما هو ما حفر داخله عشقًا خاصًّا لها، حيث كان يوم الثلاثاء هو بداية الأسبوع السينمائي. يصحبه معه للسينما في ذلك اليوم من كل أسبوع. في البداية كان يصحب الأسرة كلها، ثم وجد أن العبء الماديَّ والمعنوي ثقيل، وأنهما معًا سيكونان أخفَّ بكثير..

مشى طفلًا صغيرًا مُمسكًا بكفِّ أبيه، يعرف وجهته تمامًا، فاليوم الثلاثاء، وسينما أوديون في طنطا تحمِل على صدرها بوسترات الأفلام الجديدة. قبل الدخول اعتاد الأب أن يشتري لابنه شطائر السجق من مطعم عواد، الموجود في مكانٍ يتوسط دور السينما في طنطا. أبقى الأب على تلك العادة لسنوات حتى أصبح تعريف السينما بالنسبة للطفل، «مكانًا تجلس فيه في الظلام تأكل السجق وتشاهد النازيين».

يجلس الطفل بجوار والده، هادئًا منتبهًا، يأسِره صوت هدير آلة العرض وظهور بطاقة الرقابة، ثم أسد جولدين ماير، بطل المقدمة الدعائية لشركة «مترو جولدن ماير»، التي أخرجها ألفريد هتشكوك. أحيانًا تختلف علامة الشركة المنتجة للفيلم، لكن الطفل يُفرق بينها، يعرف حاملة الشعلة الخاصة بشركة كولمبيا (Columbia Pictures)، وكرة شركة يونيفرسال (Universal Pictures) الأرضية وجبل شركة بارامونت (Paramount Pictures). أيضًا يُدرك أن ظهور رجلٍ وامراة يحملان شعلةً، دليل على أن الفيلم المعروض من إنتاج شركة موسفيلم السوفيتية (Mosfilm).

لم يكن الأب مولعًا بأفلام طرزان أو أفلام كينج كونج، بل كانت الأفلام الحربية هي اختياره الثابت. فبعد لحظات صمتٍ ظهرت الدبابات على الشاشة، يمشي بينها الضباط النازيون بصلبانهم المعقوفة، بينما الطفل لا يشغله فكرة انتصارهم أو هزيمتهم، فقصف المدفعية جعلَه يستقرُّ على كرسيه، مُتخيلًا أن الطيران الذي يحوم فوق الجنود، سيخرج عليهم محطمًا شاشة العرض. وفي مشهدٍ يتكرر في كلِّ أفلام الحرب تقريبًا، صرخ الجنرال الألماني طالبًا من جنوده أن

يحتفظوا بالجسر، صرخ الطفل معه مُحذرًا من انهياره، فهو سبيلهم للعودة إلى ثكناتهم، لكن سرعان ما انهالت عليه القنابل وامتلأت الشاشة بالدخان. وانكمش الطفل في حضن أبيه خوفًا.

في تلك المرة، انتفض العرَّاب فوجد نفسه رجلًا كبيرًا يجلس أمام مكتبه، بينما يتردَّد حوله صوت الآخر: ما تنساش معادنا يوم الثلاثاء.. لكن المرة دي هيبقى العرض في بيت رفعت إسماعيل.

مشي العراب بضع خطوات أمام مكتبه، ثم سرعان ما غرق في شروده ثانية، مرتدًّا بذاكرته إلى طفولته، وكيف كان كل شيء حوله يُعِدُّه كي يصبح كاتبًا لأدب الرعب، حتى ذهابه مع أمِّه لأول مرة إلى مدرسة الإصلاح الابتدائية بمدينة طنطا، كان بمثابة قصة رُعب بطلها الطفل أحمد خالد توفيق. حينها جلست أمُّه مع مديرة المدرسة لفترةٍ طويلة، فظن أن المقصود بالمدرسة أن تجلس أمُّه مع المديرة، بينما هو يُراقبهما من بعيد، بعدها يعود إلى البيت ناسيًا كل هذا. لكن أمَّه ودَّعته فجأةً، وتركته، ليجد نفسه في قبضة العاملة القوية، يحاول التملُّص منها ولا يستطيع. سألته العاملة هل يُريد أن يكون في الطابق السفلي أم العلوي؟ فقال بلا تفكير وهو يحاول الفرار منها: السفلي.

دخل الفصل الدراسي لأول مرة، لا يفهم معنى تجمُّع كل هؤلاء الأطفال في غرفةٍ واحدة، بينما تنظر إليه العيون في صمت مُخيف، فهو الطفل الخجول القليل الكلام، كيف سيُجاريهم في حديثهم ولعبهم وربما في شجارهم؟ وقف مشدوهًا لا يعرف أين يجلس، غير أن المُعلمة سرعان ما وجَّهته أن يُجاور طفلًا ذا نظارة سميكة، عرف بعد ذلك أن اسمه (أبهج أديب باسيلي).

كان أبهج أديب مفتاحه على ذلك العالَم، بل وشريكه فيه، فتشابُهُهما حدَّ التطابق جعل كلًّا منهما يتمسك بالآخر، فلا يفارقه طوال ساعات الدراسة، بل ويبحث عنه باقي اليوم. فالصدفة التي خلقت بينهما صداقةً امتدت لأكثر من 47 عامًا، هي ما حددت مصيره للأبد، كما حددت نمط تفكيره وكوَّنت شخصيته، حيث شراكتهما في حب القراءة، ومُطالعة مجلات سوبرمان والوطواط وتان تان والمختار من ريدرز دايجست (Reader's Digest).

لا يعرف العراب متى بدأت تحديدًا صداقته بأبهج، لكن ربما يرجع السبب لاشتراكه معه في حفظ أغنيتِه المفضلة، أو لكونهما يهويان الرسم، وهي الموهبة التي حافظ عليها العرَّاب بجانب الكتابة، وأيضًا لكونه قارئًا نهمًا، قاسمه في قراءة كل شيءٍ يقع تحت أيديهما، لذلك امتلكا وعيًا تجاوز وعي من في سنِّهما. فدائمًا يحكي أحمد خالد توفيق أن معلمةً مبهرجةً ملطخةً بالأصباغ جاءت للمدرسة، وكان وقتها في الصف الثاني الابتدائي. فقال له أبهج بالحرف وباللغة الفصحى: إنها تستعمل ذات نوع طلاء الأظافر الذي تفضله بائعات الهوى.

يسير الطفلان في فناء المدرسة الواسع، بينما أقرانهما يلعبون ويجرون خلف بعضهم، ثم يقف أحمد وأبهج يتأمَّلان أوراق النباتات الغريبة التي تنمو في حديقة المدرسة، يمدُّ أبهج يدَه إليها كخبيرٍ بطب الأعشاب، يقطف واحدةً تلو الأخرى ويدسُّهم في جيبه، يسأله صاحبه عن السر فيجيب: هنغليه ونشربه.. يمكن يوصِّلنا لمُركَّب كيماوي مُذهل يخفيك عن العيون أو يخليك تطير.

تشاركا في كل شيء، حتى المواقف الطريفة. لا ينسيان يومَ كانا يلعبان في فناء المدرسة، يجري أبهج، وخلفه أحمد يصوب على رأسه مُسدسًا صغيرًا، صنعه من جذع شجرة. حاول أبهج أن يتفادى الطلقات التي تخرج من فم صاحبه «بوم بوم بوم»، لكن أحمد توقف فجأةً عن الركض وأغلق نصف عينه على طريقة أبطال الأفلام الحربية التي يُشاهدها، وصوب جذع الشجرة على رأسه. وبينما ينظر أبهج وراءه خرج الصوت من فمه «بوم»، فطار أبهج في الهواء وتدحرج وسالت الدماء من ثقبٍ في جبهته.

وقف الطفل أحمد مذهولًا، نظر إلى فوهة المسدس المصنوع من غصن شجرة غير مُصدق ما حدث، وبسرعة رمى أداة الجريمة، خوفًا من أن يُضبَط متلبسًا. وحاول مساعدة صديقه تكفيرًا عن فعلته. تبيّن فيما بعد أن صدفةً هي ما صنعت ذلك، فولد في صفٍّ أكبر منهما قذف «أبهج» بقطعة حجر أصابت جبينه في هذا الوقت بالذات.

بعدها، انتقلت صداقتهما إلى البيت سأله أبهج عن عنوان بيته، فأخبره دون اهتمام، وذات ليلة، كان مُستلقيًا أمام التلفزيون، فأيقظه أحد أفراد أسرته، ليجد أمامه صديقه أبهج، واقفًا في الظلام، لا يكشفه سوى وهج الشاشة، بينما تأمره أمُّه أن يشكره. ففعل دون أن يسأل عن السبب. في الصباح عرف أنه جاء في سيارة خالِه ليلًا، وأحضر له بطاقةً جميلةً كهديةٍ له في عيد الفطر.

لم تكن زيارة أبهج لأحمد هي الأخيرة، فكثيرًا ما تردَّد بعد ذلك على بيته، لا لشيءٍ غير القراءة، فمكتبة والده التي تحوي كمًّا هائلًا من الكتب والمجلات أثارت ذهوله، فكان يزوره أحيانًا ليقرأ فقط، بعد أن يطلب منه أن يصمت لعدة ساعات.

عرف أحمد أيضًا الطريق إلى بيت صاحبه في شارع النحاس، وحسب وصفه، «كان بيتًا صغيرًا منظمًا يطل على حديقةٍ غنَّاء، وكان والده مُعلمًا يهوى النجارة، لذا كانت هذه الحديقة تحوي كل ما يُلهب خيال طفل في الابتدائي. كل أدوات النجارة وجذع الشجرة المقطوع المتفحِّم الذي يُشعله أبوه ليلًا ليُعدَّ عليه الشاي، والأرجوحة المعلقة بين شجرتين».

في بيت أبهج عرف أحمد أعياد المسيحيين. أهداه في عيد الميلاد بطاقةً يبدو عليها التجار المجوس راكِعين حول المهد، كما جلب له أبهج في أحد السعف الخوص الذي شكَّله، وقد ظل محتفظًا بطاووس صغير صنعه له. حتى في عيد القيامة كان يُهديه بطاقةً يظهر عليها المسيح صاعدًا للسماء بينما يقف الحواريون منبهرين.

كل تلك المواقف يتذكرها أحمد خالد توفيق مبتسما، كما يذكر أيضًا أن أبهج كما شاركه الدراسة والقراءة واللعب، شاركه أيضًا اكتشاف الكتابة، العالم الذي اختاره وأخلص له فصار عرابه.

كان ذلك في حصة التعبير، البوابة التي عَبر منها إلى ذلك السحر الأخَّاذ، فالعراب إن لم يذكر موعدًا محددًا بدأ فيه الكتابة، فهو لا ينسى موقفًا حدث معه في الصف السادس الابتدائي. فذات يوم دراسي، طالبت المُعلمة تلاميذها بكتابة موضوع تعبير، فلمَّا انتهى

منه، وتسلَّمت الكراسات لتُقيِّم ما كُتِب، فوجئ بها تتَّهمه بسرقة الموضوع المكتوب، فأقسم أنه كاتبُه، لكن مدرسته لم تُصدقه، وضربته بالكراسة على وجهه، وطلبت منه ألا يكذب مرةً أخرى.

لم يكذب الطفل، كما لم تتعمَّد المعلمة إهانته، لكن اللغة التي استخدمها، لا تليق بمن في سنِّه. لذلك لم تُصدق أن طفلًا في الحادية عشرة من عمره يكتب قائلًا: «ولَّما انبلج الهزيع الأول من الليل» فهي لا تعرف أنه يقرأ كتابات الفرنسي جوستاف فلوبير Gustave Flaubert، منذ كان في الصف الثالث الابتدائي.

أيضا، كان أبهج أديب رفيقه في المرحلة الإعدادية، كلاهما كان مَهربًا للآخر من تاريخ محمد علي وأسرته، وقوانين ضرب الأقواس. فما إن قصد أحدهما بيت صاحبه هروبًا من مَلل المذاكرة، حتى قابله على دراجته في منتصف الطريق، قاصدًا بيته، لأنه مثله سَئِم كتب الدراسة الخاصة بالصف الثالث الإعدادي.

في تلك المرحلة، اعتاد الصاحبان أن يذهبا إلى السينما، يوم الخميس من كل أسبوع، مُصطحبَين المزيد من أفراد الشلة، لمشاهدة أسوأ الأفلام الصينية التي صُورت في هونج كونج. هناك يضحكون حتى يعجزوا عن التنفُّس، متسائلين عن سِر تحكُّم زعيم العصابة في هؤلاء الأوغاد، مُقتنِعين أنه ربما يُجيد لعب الكونج فو أفضل منهم.

فكر العرَّاب لو أنه يُجيد الآن لعبة الكونج فو، لربما تمكَّن من خصمه، ولكان قتْل الآخر الذي يُهدد وجوده أسهل بكثير من التنقيب في ذكرياته. نهض عن مكتبه، ثم تحرك في الغرفة بضع خطوات، قبل

أن يُخرج من مكتبته أعدادًا قديمةً، لمجلة «تان تان»، التي عشقها في صباه، ونشر فيها قصائده وكتاباته، لا سيما في باب «بريد القراء».

«تان تان» مجلة بلجيكية – فرنسية، صدرت منها النسخة العربية أسبوعيًّا لأكثر من عشر سنوات، ابتداءً من عام 1971م. وصفها أحمد خالد توفيق بأنها كانت فاخرة الطباعة بمقاييس السبعينيات، كما كانت باهظة الثمن، فعشرة قروش لم تكن زهيدةً، بينما أغلى مجلة أطفال لا يتجاوز ثمنها ثلاثة قروش. لهذا خاض معارك دائمةً ليبرهن لأهله على أن التضحية تستحق.

في السبعينيات، وجد جيلٌ كامل في تلك المجلة فكرًا أكثر تناسقًا مع أفكاره التحرُّرية عن مجلة ميكي الأمريكية، لكن كان للسياسة يد في توقف إصدارها، فبعد معاهدة كامب ديفيد، عام 1978، امتنعت الدول العربية عن استقدام النسخ العربية المُترجمة التي كانت تصدر من مؤسسة الأهرام، مما أثر على التوزيع والأرباح، وتوقفت عن الصدور عام 1980.

جلس العرَّاب يتفحص أغلفة الأعداد، يتحسسها بيده ماسحًا عنها تراب السنين. فتح أحدها، أخذ يقلب في صفحاته متأمِّلًا القصص المرسومة بألوانها الزاهية، حتى توقف عند صفحةٍ صفراء مخصَّصة للمواهب والهوايات. هو يعرف تلك الصفحة، تذكر وقت كان عمره 15 عامًا، رأى نفسه صبيًّا جالسًا يكتب مقالًا يفضح فيه واقعة سرقةٍ أدبية قام بها أحد القراء، وقد قدَّم مُحرر الباب مقالته قائلًا: «رسالة من صديق المجلة أنشر جزءًا منها كما هو، دون تعليق، وإن كنا نؤيد ما جاء فيها».

كتب الطفل أحمد خالد توفيق، إنه فوجئ في العدد 23 من السنة السابعة، بمقالةٍ لقارئ، كتب بكلِّ جرأةٍ أنها من تأليفه، في حين سبق أن نشرت — بالحرف الواحد — في أحدِ أعداد مجلة (المختار) التي كانت تصدُر مترجمةً عن مجلة (ريدرز دايجست Reader's Digest) الأمريكية.

اعتمد القارئُ اللصُّ على أن مجلة «المختار» التي كانت تصدُر عن دار أخبار اليوم قبل الحرب، لم تكن منتشرةً في مصر آنذاك، لكن حظه العثِر أن العرَّاب كان متابعًا جيدًا. ويبدو أن حسَّه الساخر قد لازَمَه منذ صباه، فلم يكتف بفضحه، بل راح يُكمل قائلًا، إنه لو حذا القرَّاء حذو هذا القارئ السارق، فمن الأجدر تغيير اسم الباب إلى «من قراءاتي» بدلًا من «مواهب وهوايات».

نشر أحمد خالد توفيق في نفس العدد من المجلة قصيدة شعر. كانت بعنوان «قصة حب»، اقتبس فكرتها من ترجمة أغنية love story التي قُدِّمت في فيلم رومانسي أمريكي صدَر عام 1970 بنفس الاسم. في تلك المرحلة العمرية، عرف الطريق إلى كتابة الشعر، لكنه بعدما قرأ لشعراء مثل السيَّاب وصلاح عبد الصبور، وأمل دنقل، أدرك عُمق الهوة بين ما هو عليه وما وصل إليه أولئك، فهجَرَه مبكرًا، وإن لم يتخلَّص من اللغة الشاعرية في كتابته القصصية بعد ذلك.

في نفس العام تقريبًا، نشر بريد القراء، قصيدةً جديدةً لـ أحمد خالد توفيق، صاحب الـ 15 عامًا، والساكن في طنطا 1 شارع جامع المنشاوي فوق قهوة لمنوس. كانت بعنوان «آراء متطرفة» وقد أثنى مُحرر باب بريد القراء على نظمِه للشعر، وصِدق كلماته،

قائلًا: «قصيدتك قطعة من الأدب الرفيع، تأثرتُ لكل كلمةٍ جاءت فيها لأنها كلمات صادقة، نابعة من القلب». كان قد أرسل بعض الرسومات أيضًا، لكن المُحرر لم يجدها بنفس مستوى الشعر المُرسَل.

ومن الطريف، أن ذات العدد، نُشرت فيه إحدى رسومات الدكتور نبيل فاروق رمضان، في مرحلة المراهقة. كانت رسمته عبارةً عن فرقة ديسكو شبابية من حقبة السبعينيات، أطلق عليها اسم «النجم الأزرق» فكان ذلك أول ما جمع بينهما، دون أن ينتبِهَ أحدهما إلى الآخر.

دخل أحمد خالد توفيق فترة المراهقة مستندًا إلى كتف صديقه أبهج، فكيف سيختبِر رفعت إسماعيل معرفته بتلك الفترة؟.. تخيَّل أن رفعت سيقف صامتًا بينما صوت ديميس روسوس Demis Roussos يبدأ في الغناء: «غرفة وحيدة وكرسي فارغ.. ويوم آخر من الصعب أن أتحمَّله.. وكل الأشياء التي أراها من حولي تُذكرني بالماضي وكل ما كان يجري فيه.. فمن ذكرى إلى ذكرى أعيش»، وفي لحظةٍ سيغلق الأغنية ويسألهما عما يعرفانه عنها.

ربما يقول القادم من عالَمه الآخر، إنها لـ ديميس روسوس، المغني العالمي المصري المولد، اليوناني الجنسية، أما العرَّاب فسيحكي أنه و«أبهج» في فترة المراهقة، كانا يسيران بالدرَّاجة في شوارع طنطا، يختلسان النظر إلى الفتيات الحسناوات في شارع البحر، وقد علَّقا إلى الجادون كاسيت صغيرًا تخرج منه هذه الأغنية.

سيذكر الدكتور أحمد خالد توفيق غيرها من أغاني ديميس روسوس Demis Roussos، والبيتلز (The Beatles) وفرقة آبا ABBA وبي جيز Bee Gees وإريك كلابتون (Eric Patrick Clapton)) وفرقة بوني إم Boney M، التي كانا يسمعانها معًا، حتى ظهرت فرقة (المصريون) بقيادة هاني شنودة، فأخذتهما ألحانها الرشيقة وكلماتها المختلفة.

لن ينسى اكتشافهما أن أم كلثوم وعبد الوهاب رائعان، فهكذا الشباب، يرفض سماع أغنيات الكبار، باحثًا عن عالَمه الموسيقي الشاب، حتى يُصيبه النضج، فيعود إلى سماع ما رفضه من البداية.

لم يُفرق بينهما في تلك المرحلة غير الثانوية العامة، فـ أبهج لم يستطع أن يُرغم نفسه على الاستذكار، بينما روَّض أحمد جواد عقله الجامح، فكانت النتيجة أن دخل كلية الطب، بينما التحق صاحبه أبهج بكلية العلوم. ولم تكن تلك الفرقة سوى في الكليات الجامعية، أما الصاحبان فظلَّا كيانًا واحدًا.

انتبه العرَّاب إلى دموعه وهو يسترجع مرحلة الثانوية العامة، تلك الذكرى التي لا تزوره وحدَها عادةً، إنما تجلب معها مرارة الفقد. وقف باكيًا أمام مكتبه، ينظر إلى الصورة المُعلقة على الجدار، حيث يقف فيها صغيرًا بجوار أُمِّه. هو لا ينسى يوم تُوفِّيت، كان صبيًّا في الثانوية العامة، بكى يومها كثيرًا، وربما قاسمه أبهج البكاء. شعر بعد موتها بالوحدة، لكن وجود أخواته البنات حوله عوَّض احتياجَه لوالدته بعض الشيء، فكانت كل واحدةٍ بمثابة أمٍّ له، وكان هو ابنًا مُطيعًا وأخًا يمكن الاعتماد عليه. لكن يومًا بعد يومٍ كان على أخواته

أن يُفارقنه أيضًا، فالزواج سُنة الحياة. تزوَّجت شقيقته الكبرى د. ألفت، ثم شقيقته الوسطى المهندسة إيمان، ولم يبقَ معه بجوار والده غير شقيقته (أميرة) أصغرهنَّ وأقربهنَّ إليه.

هل يمكن أن يسأله رفعت إسماعيل عن شقيقته (أميرة)، بطلة القصة التي طالما هرب منها وأنكرها. لم يكتب العرَّاب عنها ولو لمرةٍ واحدة، رغم أنه سوَّد آلاف الصفحات. يا لقسوة رفعت!.. ربما وقف في المناظرة مُمسكًا بسيجارته، غير مبالٍ بقلبه الواهن، قائلًا وهو ينفُث الدخان من فمه: ليه ماكتبتش عن أميرة؟.. سيكتفي العرَّاب بصمته، محاولًا منع دموعه من الهروب، في حين يستغلُّ قرينه ذلك، ليحصد نقطةً تُقرِّبه من أن يُصبح هو أحمد خالد توفيق.

أميرة كانت جُرحَه الذي لم يبُح به، فلم يسمح لنفسه أن يقترب منه، أو يكتب عنه، فإن كان تخلص من الرُّعب بالكتابة، فذلك الجرح أنكره من أساسه، ولم يُصدقه، وعنها يقول الكاتب وصديقه الدكتور أيمن الجندي، إن «هذا هو سِر الأسرار لخالد، بل قُدس معبدِه الذي لم يستطع الكتابة عنه أبدًا».

بدأت الحكاية بعدما تُوفيت والدته، وتزوجت شقيقتاه الكبرى والوسطى. لم يبقَ معه سوى (أميرة)، الفتاة الهشة الوديعة الخجلة القليلة الحيلة. كانت بالنسبة إليه «كل المعاني الطاهرة التي يمكن أن يحتويها قلبٌ إنساني، وكان هو أخوها الصغير وصديقها وابنها، الذي لا تحتمِل أن يُخدَش». بقِي أحمد وأميرة معًا، يرعَيان والدهما بعدما بدأ يُعاني أمراض الشيخوخة. كانا يتناوبان على رعايته، يسهران

بجانبه ليُعطياه الدواء، ويؤنسان ليالي مرضه الأخير، حتى توفَّاه الله، فأصبحا وحيدَين، ليس للآخر غير شقيقه.

عاشا يقتسمان الحزن معًا، يحكي لها، فتهوِّن عليه، كذلك يرعاها ويحميها، ويُطمئنها دون أن تتكلَّم. أحبَّها كما لم يُحب أحدًا مثلها، تعلقت بها روحه، فتمنَّى لو لم يُفارقها، لكنها، وكحال كل الفتيات، لا بد أن تتزوج، خصوصًا بعدما تأخرت قليلًا بمقاييس هذا الزمن. تزوَّجت (أميرة) من شابٍّ وسيم، انتقلت معه إلى (القناطر). حزن العرَّاب لفراق شقيقته، وصار البيت مُوحشًا دونها، لكنه فرح لتحقيق حلمِها في أن يكون لها أسرة. وحنينًا إليها، اعتاد أن يزورَها كل خميس، ليطمئن عليها، مُتناسيًا مشقَّة السفر.

مرت السنين، تخرَّج أحمد وتزوج وأنجب، لكن قُربه من أميرة لم يتغير، وزيارته لها لم تنقطع، حتى ذلك اليوم الذي عرف فيه الجميع بوفاة إحدى شقيقاته، حينها خاف المُقربون منه أن تكون هي، فقد يُجنُّ أو يموت مكتئبًا، لكن أصدقاءه عندما ذهبوا لتعزيته في البيت الريفي في السنطة، فوجئوا به واقفًا ثابتًا يستقبل المُعزِّين. كان بينهم الدكتور أيمن الجندي، الذي لم يُحوِّل عينه عنه طيلة الوقت، فهو صاحبه الذي يعرف أبعاد المأساة، وطبيعة علاقته بأخته، لذلك لم ينخدِع بتماسُكه وثباته وهو يصافح المُعزِّين.

واصل العرَّاب حياته بعدها ملتزمًا الصمت، لا يتحدَّث عن أميرة، كما لم يكتب عنها حرفًا واحدًا طوال حياته، وبقي أصدقاؤه يتعجَّبون من هذا الجلد، إلى أن أفضى له الدكتور أيمن الجندي بالسؤال الذي حيَّره وتحاشاه كثيرًا.. فسأله بتلطُّف: كيف استطاع أن

يتحمَّل وفاة أميرة؟ فحكى له عن تدخُّل ميكانيزمات الدفاع النفسي، خاصةً ميكانزم (الإنكار)، لأنه لو اعترف بموتها فلن يستطيع أن يحيا بعدها لحظةً واحدةً.

بعد سنواتٍ كتب الدكتور أيمن الجندي قصةً بعنوان (سآتي في خميس آخر)، كانت في حقيقتها قصة شقيقته «أميرة»، كتبها على لسانه بعد أن استأذنه، وكان شرط العرَّاب الوحيد أن يُجنبه قراءتها، لأنه لا يستطيع احتمال ذلك، وبالفعل؛ عندما نشرت ضمن كتابه (الكثير من الحب) حرص على أن يهديَه نسخةً منه، لكن بعد أن مزَّق هذه القصة.

موت أميرة هو الجرح المُميت الذي خبَّأه العرَّاب، الحقيقة التي أنكرها، ومن ثم، هل سيضطرُّه رفعت إسماعيل إلى تصديقها؟ أم هل سيرحمه ويتجاوز عنه تلك الآلام؟

تفجَّرت التساؤلات داخلَه، وقت كانت الدموع تُغرق وجنتَيه، لكن ما قطع شروده، وجعله يغلق ألبوم الصور ويُدخله إلى دُرج مكتبه، هو صوت زوجته الدكتورة منال، قادمًا من صالة المنزل، قائلة: العشا جاهز.

الفصل الثالث

عندما خرج الدكتور أحمد خالد توفيق من بيته، وجد الشمس سبقته إلى الشارع، وكلَّما نظر إليها رمقته متثائبةً، وهي تتنفَّس الضوء على مهل. كذلك كانت بقايا نوم في جفون المارين بجواره، أما هو فلم ينم إلا سويعات غالَبَه فيها التعب. طوال الليل، لم تفارقه صورة ذلك الآخر، يراه كلما انقلب أو اعتدل، حتى أحلامه دخلها دون استئذان، لوَّح له مبتسمًا ومضى.

في الليل، أعاد تفاصيل اللقاء، باحثًا عن ثغرةٍ يعبُر منها إلى خصمه، تساءل عن مكانه، فتخيَّله ساكنًا معه نفس البيت، يُشاركه الطعام والفراش، أو ربما يُراقبه من بناية مجاورة، يعدُّ عليه أنفاسه ودقَّات قلبه المُعتل. تعجب، كيف تركه يمسك بخيوط اللعبة كاملةً، يُحدد موعد ومكان المناظرة، دون اعتراض. مشى خطواتٍ تجاه سيارته، ثم توقف في منتصف الشارع شاردًا، فكَّر في ما سيفعله إن لم يأتِ ذلك الآخر في الموعد.. هل يبحث عنه حتى يجده ويطرده من عالمه؟ أم يذهب إلى رفعت ويحكي له كل شيء؟ لم يَمِلِ العزَّاب إلى أيٍّ من الخيارين، التفت حوله ثم أكمل السير.

المسافة من بيته في شارع ثروت إلى المجمع الطبي بطنطا ليست بعيدةً، لكن بحكم السن ومرض القلب، لم يعُد قادرًا على أن يقطعها مشيًا. في الطريق ظل ينظر من شبَّاك سيارته، يتفرَّس ملامح الناس،

يبحث فيهم عن قاتلٍ أو مصَّاص دماء أو ربما مُستذئب. لكنه لم يَرَ فيهم غير وجهه، فكل شخصٍ يحمل قطعةً منه. الشاب الذي وضع في فمه سيجارةً، سبقه إليها شابٌّ آخر اسمه أحمد خالد توفيق. أصبح الآن رجلًا، ورغم ما جناه من التدخين ما زال يحسدُه على سيجارته.

***

أسند ذراعَه إلى باب السيارة، متذكرًا أول عهده بالسجائر. كان موعدًا غراميًّا، نامت فيه بين أصبعَيه كفتاةٍ بيضاء بكر، وهبَتْ نفسها لحبيبها لأول مرة، بينما هو ينظر إليها في ولهٍ تعلَّمَه من السينما، زرعه الأبطال الذين يهربون إليها من الضغط العصبي. فما إن افترق حبيبان على الشاشة، حتى أشعل المُمثل الوسيم سجارته، ووقف يتطلَّع إلى السماء، علَّها تُعيد حبيبته إليه. هكذا العرَّاب، لمَّا وجد نفسه شابًّا يطارد أحلامًا تفر منه، ذهب إلى والده ليُخبره برغبته.

- **كنتُ في رابعة طب قلت له أنا عايز أشرب سجاير معلش، بس ثق إن أنت مش هتشوفني وأنا بشرب، بس أنا هشرب.**

سكت والده، ربما لم يُجبه بالإيجاب خوفًا على صحته، لكنه أيضًا لم يعترِض احترامًا لشجاعته.

بدأ بسيجارةٍ يشربها كل خميس. كان موعدًا أسبوعيًّا ثابتًا ومنضبطًا، لم يُتعبه النيكوتين ولم يُرهقه القطران بعد. كانت سيجارةً واحدةً أسبوعيًّا اعتاد أن يأخذها من صديقٍ له اسمه «محمد»، يذهب إليه بعد المحاضرات العملية ليُشعلها.

ظلَّ الشاب مُكتفيًا بسيجارة صديقه، لكن ثمة مرحلةً يعرفها المُدخنون، فكل شخصٍ بدأ بسيجارة يستعيرها من صاحبٍ له، حتى أتى الوقت الذي أصبح فيه مُدخنًا شرهًا، لا يبدأ يومَه دون سيجارة الصباح، ولا يأتيه النوم إلَّا مصحوبًا بسيجارة المساء.

- «**السبت خدت من محمد.. الأحد خدت من محمد، الإثنين ما جاش محمد رُحت شاري**».

لم يشتر السجائر من مصروفه، فمن حق والده عليه ألا يُبدد أمواله في غير مقصدها، لذلك لجأ إلى حيلة تجعله يشتريها من حُر ماله، وقتها كان يحصل على مكافأة تفوُّق من الجامعة مقدارها 15 جنيهًا، خصص جزءًا منها للإنفاق على التدخين.

في تلك المرحلة كان صاحبه أبهج بجانبه أيضًا، كما شاركه الكتب والسينما واللعب، شاركه بدايته مع التدخين. رآه يُدخن فاستنكر فعلته في البداية، لكن شيطان فضوله خلق داخله رغبةً في اكتشاف ما يشعر به المدخنون. طلب من صاحبه سيجارةً، فرفض مُحذرًا، لكن أمام إصراره، منحَه أحمد واحدةً، ولم تكن الأخيرة. بدأ أبهج رحلته بسرعةٍ تفوق صاحبه، فبعد أسبوعٍ صارحه بمشاكله الشديدة مع الإقلاع عن التدخين، بل وصار بعدها يدخن علبةً كاملةً يوميًّا.

كانت علاقة العرَّاب بالسجائر أشبه بزواجٍ كاثوليكي، لم يتخلَّص منه إلا بإتلاف صحته. تلك العلاقة تشارك فيها ورفعت إسماعيل، فالاثنان يُدخنان كما لو أنهما قطَعا نذرًا أن يقضِيا على سجائر الدنيا. يُدخن رفعت «**كبرلين حين دخلها الحلفاء، ويسعل كمُستعمرة درن كاملة، ويُعاني من دزينة من الأمراض المختلفة**»، أما العرَّاب فلم

يُرَ إلا مُمسكًا بسيجارته طوال 27 عامًا تقريبًا، منذ بدأ التدخين في 1989 وحتى توقَّف عنه مُرغمًا في 2011.

شاركه «أبهج» أيضًا أول خسائره، يوم جلسوا مع صديقَين آخرين، ليؤسِّسوا أول مشروعٍ لهم. كان ذلك في فترة الثمانينيات، وقت كان حاسوب «صخر» يغزو الدول العربية، ومن ثم حاولوا استغلال تمكُّنهم من أعمال الحاسب الآلي، وافتتحوا شركة كمبيوتر صغيرةً.

حققت الشركة بعض النجاحات البسيطة، فاستبشر الأصدقاء خيرًا، لكن سرعان ما تبددت أحلامهم، ولاحقتهم الخسائر، فلم يجدوا مفرًّا من طيِّ تلك الصفحة، وإن ظلت صداقتهم باقيةً.

تذكر العرَّاب تلك الشركة مُتبسمًا، ثم أخرج يده من شبَّاك سيارته معاكسًا الهواء، وهو يُردِّد مع ماري هوبكنز (Mary Hopkins)، أغنيتها الأقرب إلى القلب «**تلك كانت الأيام**»، ردَّدها كثيرًا وهو ينظر إلى الشارع، يُفكر في سبب خروج الناس من بيوتهم مبكرًا، مُرجحًا أنهم بشكلٍ أو بآخَر خرجوا بحثًا عن المال. هو أيضًا عندما شارك أصدقاءه في شركة الكمبيوتر، كان يبحث عن المال، لكن لماذا لم يُفكر في فتح عيادة مثل باقي زملائه؟ في الحقيقة، شارك زميلًا له في عيادة. كان ذلك في بداية حياته، لكنهما لم يستمرَّا طويلًا، فبجانب عمله في الجامعة، يحتاج الأمر إلى ساعاتٍ يسمع فيها المرضى ويشخِّص حالاتهم، مما كان سيؤثر على مُنجزه القصصي، لذلك سرعان ما انحاز للأدب، لأن الكتابة ربما تشفي أمراضًا أخطر.

بدأت معرفته بالحاسب الآلي قبل شراكتهم بسنوات، تحديدًا في عام 1985، وقت كان طالبًا في مرحلة البكالوريوس، فقد رأى الكمبيوتر لأول مرة، وربما كان ذلك هو أول كمبيوتر يراه الناس في طنطا. وكغيره ممَّن شاهدوه، وقف مفتونًا، يُحدق في الجهاز وهو يعدِّل نظارته، بينما تخرج الكلمة من فمه كطلقة مسدس: **أنا لازم أجيد هذا الشيء**.

أحضر بعدَها الكثير من الكتب التعليمية، وقرأ بنَهَم، كان كل سطرٍ يفتح له عالمًا، ويفك شفرةً من شفرات هذا الاختراع العجيب، علَّم نفسه لغة «**البازك**»BASIC، ثم بدأ في تصميم برامج كاملة، ولم يكتفِ بذلك، بل حمَله عطشه الشديد للاكتشاف، إلى برامج أكثر تعقيدًا.

الفرصة دائمًا تؤكِّد أن ما عليك سوى أن تتعلَّم، حينها ستجد المعرفة سبيلك للوصول. هذا ما جرى مع العرَّاب في شبابه، فبعد تعلُّمه وإتقانه تصميم برامج الكمبيوتر، سمع أنَّ المكتب التنفيذي لوزراء صحة التعاون الخليجي، يحتاج إلى طبيبٍ ليعمل مديرًا لنظام الحاسب الآلي. قدَّم ما يملك من شهادات فاختاروه بتوصيةٍ من أستاذٍ له. سافر للعمل في السعودية، ليبدأ بذلك عالمًا جديدًا شكَّل جزءًا من أسطورته.

***

قضى في المملكة العربية السعودية عامًا كاملًا، عاش في مدينة الرياض، حيث يسودُها جوٌّ من التحفُّظ العام، وتُسيطر عليها هيئة الأمر بالمعروف، التي تحد من حركة المغترِبين داخلها. لذلك كثيرًا ما جلس في المنزل لساعاتٍ طوال، تفرغ فيها للكتابة، ووجد مُتسعًا للتجريب واكتشاف الذات. ورغم معاناة أغلب من سافروا للعمل في السعودية، إلا أن تجربته كانت مختلفةً بعض الشيء:

- **«أنا تجربتي كانت فريدة، أنا محظوظ إني اتعاملت مع طبقات راقية من الناس، فالحقيقة كان انطباعي إيجابي قوي عن الشخصية السعودية»**.

فجأةً، أصبح هو المسؤول عن نظام الكمبيوتر بالمكتب التنفيذي لوزراء صحة التعاون الخليجي. كان ذلك أمرًا مرعبًا بالنسبة له، لكنه أثبت جدارته. فقد صمَّم لهم نظامًا معلوماتيًّا متطورًا، استطاعوا من خلاله، وبأقلِّ جهد، أن يجدوا أي معلومةٍ يبحثون عنها.

- كما صمَّم وباع الكثير من برامج الكمبيوتر، مُحققًا بذلك عائدًا ماديًّا مجزيًا، فسفره من الأساس كان لأجل المال.

- **«أصل الفلوس يا بتورثها يا بتسرقها يا بتتجوزها يا تسافر لها»**.

رجع العرَّاب من السعودية عام 1993. تزوَّج من زميلته الدكتورة منال في نفس العام، ورُزقا بمولودهما الأول (محمد) بعد زواجهما بعام واحد. ظلَّ بعدها مكتفيًا بعمله كطبيب، منشغلًا في تحضير رسالةً الدكتوراة لسنوات، حتى حصل عليها في طبِّ المناطق الحارة عام 1997.

في العام التالي جاءت ابنته (مريم) إلى الدنيا، فسافر إلى السعودية مرةً ثانيةً، علَّه يؤمِّن لها مبلغًا من المال، لكن تلك المرة، لم يحتمِل غربته سوى ٦ أشهر، عاد بعدَها إلى مصر، مُشتاقًا لابنته الوليدة، لتنقطِع بعدها علاقته بالعمل في الخليج.

بقي الحاسب الآلي جزءًا مهمًّا من سيرته حتى 2003، فذلك العام شهد انقطاع علاقته بالكمبيوتر، ذلك لأن عقله لم يستطع مجاراة التطورات التي طرأت على عالم الحاسب الآلي، فبدأ يتراجَع. حاول بعدَها تسخير تلك المعرفة في خدمة أعماله القصصية، فكتب سلسلة «www» في 2006، كان بطلها كائنًا فضائيًّا مُمثلًا في فيروس كمبيوتر، يتنقَّل بين الأجهزة عبر دول العالم، كاشفًا أسرارًا، تنقلنا إلى قلب عالَم الجاسوسية. لم يصدر من سلسلة «www» سوى 5 قصص فقط، ثم توقف عن كتابتها، لأن أحد القرَّاء قال له، إن حبكتها بديعة، لكنها تعكس معرفةً محدودةً بالكمبيوتر ومشاكله.

***

كاد العراب يدهس شابًّا، يعبر الشارع وهو ينظر إلى هاتفه غير مُنتبه للسيارات. ضغط على الفرامل بقوةٍ وهو ينظر إليه في ذهول. انتفض الأخير لصوت احتكاك عجلات السيارة بالأسفلت، نظر حوله لبرهةٍ ثم أكمل طريقه، تاركًا العرَّاب يسب الأمريكيين مارتن كوبر Martin Cooper مخترع الهاتف المحمول، ومارك زوكربيرج Mark Zuckerberg صاحب موقع «فيسبوك» الذي سحر عقول الناس.

أكمل طريقَه إلى الجامعة، محاولًا السيطرة على أعصابه. هو لم يسترِح في حياته لفكرة الهاتف المحمول، سواء لأسبابٍ تعلقت بعدم قبولِه للفكرة، أو لتأثيره على الجهاز المُنظِّم لضربات القلب، المزروع تحت جلده. وأيضًا رغم تعاظُم شعبية «فيسبوك» مع صعود ثورات الربيع العربي، إلا أنه لم يجد ما يربطه بالموقع الأزرق، سوى بعض الحسابات المُزيفة.

أراد تتبُّع ما ينشر من شائعات حوله على «فيسبوك»، كما أحب التواصُل مع أعضاء الجروبات الخاصة بأعماله الأدبية، ليُدلي برأيه أحيانًا، ويُصحح معلومةً أو خطأً لغويًّا في أحيانٍ أخرى. ولكسب بعض الخصوصية، استعان بحساباتٍ تحمِل أسماءً مُستعارةً. لكن بحكم معرفة البعض بأسلوب كتابته وتعليقاته الساخرة، تمكنوا من كشف هويته، لكنهم حافظوا على السر، فبقِيَ حسابه الشخصي غير معروف للكثيرين، وبقِيَ هو غريبًا على هذا الموقع حتى النهاية. فهو لم يفهم فكرة «فيسبوك»، أو مصطلح «Share» الذي يسمعه كثيرًا من الشباب، لذلك بقِيَ ابنًا بارًّا للمنتديات الأدبية، لا سيما منتدى الروايات التفاعلية.

كانت بداية معرفته بمنتدى الروايات التفاعلية في عام 2000. يذكر ذلك اليوم جيدًا، كانت المرة الأولى التي استخدم فيها برنامج المُراسلَة الفورية «ياهو ماسنجر»، ولم يكن مُلمًّا بطبيعته وكيفية التعامُل معه، فجأةً أرسل إليه شاب يُدعى هاني رمزي رسالة، يسأله فيها إن كان هو الدكتور أحمد خالد توفيق؟

أجابه: أيوه أنا.

صارا صديقَين على ماسنجر، وأصبح الحديث بينهما شِبه يومي. حكى له هاني أنه مؤسِّس منتدى شبكة روايات التفاعُلية على الإنترنت. لم يفهم العرَّاب مقصده. لم يستوعِب ما تعنيه كلمة «منتدى» وما الغرض منه. حاول هاني شرح الأمر، كما علَّمه طريقة الدخول، ومنحه الاسم الغريب «AAA» ليدخل به إلى المنتدى.

المنتديات هي المرحلة التي سبقت فيسبوك، وكانت الوسيلة الأهم في تواصُله مع القراء، لا سيما منتدى «شبكة روايات التفاعلية»، الذي يُعَد نواة ما يمكن تسميته بمجتمع العرَّاب.

وقد اعتاد ابتداءً من العدد خمسين من روايات مصرية للجيب، أن ينوِّه في آخر قصصه عن منتدَيَين. الأول «قراية دوت كوم»، الذي يضم معلومات عنه وعن السلاسل التي يكتبها، والثاني «روايات دوت نت»، وهو منتدًى تفاعُلي، يدخله الأعضاء ليتحاوروا. كان دخوله باشتراكات، وأعضاؤه بمثابة «ألتراس»، يتفاعلون مع ما يُكتَب بشكلٍ دائم، ووصل عددُهم إلى 6 آلاف عضو.

وجد العرَّاب في منتدى روايات التفاعُلية مجتمعًا مثاليًّا، أو على الأقل وجد فيه حدًّا معقولًا من قبول الآخر، والاختلاف بعيدًا عن السباب وإهانة الغير:

- * بعد شوية المنتدى علِّمني إن أنا اتكوِّنِت ليَّا أسرة من الأصدقاء موجودة على النت على طول.. حاولت إن أنا أدخل منتديات تانية كتير.. يعني أنا قيدت اسمي وسجلت في كذا منتدى ما بعرفش انتظم.. يعني هو لو في بيت مش بيتي.. في بيتي عارف المطبخ فين وأوضة الصالون فين والسفرة فين

وعارف الكبايات كل كباية مكانها فين.. هو دا منتدى روايات بالنسبة لي.. عارفهم واحد واحد.

نظم منتدى روايات التفاعلية لقاءات مع الكتاب. كان اللقاء الأول مع الدكتور نبيل فاروق، في 23 فبراير 2001، بينما جاء لقاء الدكتور أحمد خالد توفيق، بعده بخمسة أشهر، تحديدًا مساء يوم الثلاثاء 19 يونيو من نفس العام.

كان الحوار كتابةً على شات المنتدى. وفوجئ العراب في بدايته بأن الحروف العربية تظهر لدَيه على شكل مربعات فقط. لذلك كتب باللغة الإنجليزية. أيضًا على عكس ما كان مُخططًا له، سمح للمشاركين بطرح أكثر من سؤال عليه، فطالت مدة الحوار. سألوا الشباب عرَّابهم فأجاب، وأيضًا ضحكوا معًا. بينما هاني رمزي يدير اللقاء بمهارة فائقة.

تناول الحوار أكثر من جانب، أولها تعلُّق بأعماله القصصية. بدأه أحد المشاركين، بسؤال عن الحكمة من تكرار تيمة العلاقات البائسة مع أجنبيات، في كلٍّ من «ما وراء الطبيعة» و«سافاري». أجابه أنه في وقتٍ ما شعر بمَيلٍ تجاه فتاة أجنبية، وربما استحوذ عليه هذا.

حكى لهم عن التشابُه الحقيقي بينه وبين رفعت إسماعيل، قال إنه اكتشفه في سنة 1992. لكنه كان قد كتب أسطورة «مصَّاص الدماء» في العاشرة من عمره، لذلك أعاد كتابتها في الثانية والثلاثين. فقد كان على «رفعت» أن يُصبح ما هو عليه.

أراد العرَّاب أن يُنهي سلسلته «ما وراء الطبيعة»، عند العدد خمسين، لاعتقاده بأنه عدد كافٍ. فهو يكره الملل كما يكره القصص المملة. سألوه عن أسباب تراجُعه، قال إنه اعتقد فيما بعد أن خمسين عددًا لم تُعطِه الوقت الكافي كي يقول كل ما أراد قوله.

انتقل الحوار إلى موقفه من القضايا السياسية. ولمَّا كان ذلك في العام 2000، حيث ساد الحديث عن مقاطعة المنتجات الأمريكية دعمًا للقضية الفلسطينية، فقد سُئل عن رأيه في المقاطعة، فقال إنها أمر مُهم، وإن هناك الكثير من الحماس، قُتل بواسطة الذين تكلَّموا عن أن الاقتصاد المصري بدأ يتأثر بالمقاطعة. حكى لهم أن «غاندي» هزم بريطانيا بالتوقُّف عن شراء الملح والصوف. لكن مشكلتنا أننا مُتورطون في الاقتصاد الأمريكي.

عاد الحديث إلى أعماله، لكنه حمل في تلك المرة، طابعًا نقديّا، حينما رأى أحدُهم أن هناك بعض الأخطاء تُحدث تناقضًا بين بداية القصة ونهايتها، واستشهد بـ (أسطورة عدو الشمس)، ثم سأله: لماذا لا تقرأ قصصك بعد أن تنتهي من كتابتها؟ فأكَّد أنه يقرؤها عدة مرات. لكن هناك أخطاءً تحدُث، وعدَه بألا يكررها.

قال شاب إنه لم يُحب «أسطورة الغرباء». كما تجرأ مُراقب الحوار، وأكد أن أسطورة «الفصيلة السادسة» كانت مُملةً جدًّا، كما قال أحدهم إن «فرانكنشتاين» ذات نهاية متوقَّعة.

لم يغضب العرَّاب من النقد، بل كان يبحث عنه، ويصرُّ عليه. فالمنتدى بالنسبة له، بمثابة مرآةٍ تعكس ردود الأفعال تجاه ما يكتب. يستطيع من خلاله تحديد مساره، وكثيرًا ما جعله المنتدى يعدِل

عن ذلك المسار، فهو يؤمِن أن أغلب الأعضاء يشعرون بقدْر من المسؤولية، تجاه ما يكتبه.

بعد قرابة ساعتَين ونصف، استأذن في إنهاء الحوار، قالوا له: لا تنسَ أننا هنا نُحبك. أكَّد لهم أنه أحبَّ كل دقيقة قضاها معهم، ووعدَهم بأن يُكررها. بضع كلماتٍ أخرى خرجت متناثرةً على الشاشة. ظهر بعدها للمشاركين أن الدكتور أحمد خالد توفيق غادر المحادثة.

كان «أدهوم الأمير» من بين أعضاء منتدى «روايات دوت نت». عرف الطريق إليه في 2004، من خلال تنويه العرَّاب في آخِر الروايات، بعدَها تكشَّف له ذلك العالم، وفتح آفاقه على قراءاتٍ وثقافة مختلفة، كما خلق له مجموعةً من الأصدقاء. أصبح أغلبهم أسماءً معروفةً، فيما بعد، فلم يكن «أدهوم الأمير» سوى اسمٍ حركي للكاتب والمُمثل الشاب أحمد صبري غباشي.

التقى الأعضاء ذات مرة، وشاركوا صور التجمُّع على المنتدى، كان العراب يتابع مثل هذه الأشياء، وضمن تعليقه، قال إن «أدهوم الأمير» يُشبه يوسف إدريس في صباه. رغم بساطة التعليق، إلا أن أحمد صبري غباشي اعتبره أول احتكاكٍ مع كاتبه المُفضل، ففرح به، وظل محفورًا داخله، يَسعد به كلما تذكَّره.

انتهى عصر المنتديات، لكن أثره ظل باقيًا في نفوس من عرفوه، فـ أحمد صبري غابشي، لم ينس المرة الثانية التي لفت فيها انتباه أستاذه. كان حينها قد نفَّذ موضوعًا بعنوان «اسمه أحمد خالد توفيق»، جمع فيه معلوماتٍ شخصيةً عن العرَّاب، ومقولاته بشكلٍ مفصل، سواء

في السياسة أو في الدين أو غيرهما. جمعه غباشي من قصص العراب وكُتبه، وكان مجهودًا كبيرًا على صبيٍّ في الخامسة عشرة من عمره، لا سيما أن المواقع الإلكترونية لم تكن متوافرةً بالشكل الكافي. اندهش الدكتور أحمد خالد توفيق لذلك الجهد، وأرسل له قائلًا:

- **ما كنتش أعرف إن حد ممكن يحصر كلامي بالشكل دا.**

***

لا يعرف العرَّاب كم الوقت الذي قضاه في الطريق منذ خرج من بيته. السيارة تمشي كما لو كانت تعرف مقصدها. أما هو فظلَّ شاردًا، لا يرى غير رفعت إسماعيل واقفًا بينَه وبين الآخر. يسأله فيجيب. يمشي أمامه كبهلوان على حبل، إن سقط فقد حياته وربح الآخر هويته ووجوده.

قطع شروده أحيانًا، صوت ماري هوبكنز (Mary Hopkins) الخارج من الكاسيت هادئًا، ومؤلِمًا في الوقت ذاته. تُغني ما معناه: «**يا صديقي نحن أكبر سنًّا ولكننا لسنا أكثر حكمةً.. لأن الأحلام في قلوبنا لا تزال كما هي**»، يتألَّم العرَّاب ويبكي جُرحه القديم.

في شبابه، أحبَّ زميلةً له، ظلَّ يُراقبها في صمت، حتى تزوَّجَت غيره. ترك الأمر داخله جرحًا عميقًا، وظل يتابع أخبارها من بعيد. عرف بعد فترة أنها سافرت مع زوجها إلى إحدى دول الخليج، فحاول نسيانها، أو علَّه تناساها. بعد سنين ظهر وميضها في حياته، وقت كان يعمل في مستشفًى خاصٍّ، وجاءه شاب، طلب منه أن يأتي معه ليكشف على والده في المنزل. ركب معه سيارته واتجها إلى البيت،

وجد نفسه يقطع نفس الطريق إلى بيت حبيبته. ارتاب في الأمر، سأل الشاب عن اسمه، وعرف أنه شقيقها، حينها تفجَّرت كل المشاعر داخله.

ظلَّ شاردًا، يفكر في كل لحظة رآها، يأمُل لو كانت في البيت تنتظِره، لربما لمح طرفها ولو مرةً أخيرةً، أو علَّه استجمع قوته ونظر إليها مُعترفًا بحبِّه. لكن كيف وهي سيدة متزوجة؟ وتقيم مع زوجها خارج البلاد.

بقِي على حاله حتى وصلا البيت، حينها أحسَّ بها في كل ركن. رآها طفلةً تلعب بين الحجرات، فتاةً جميلة تُرتب الأثاث، حتى وهو يكشف على والدها، كانت صورتها تتراءى له. عرف بعدها، أن حبيبته هي من رشَّحت اسمه، لكن والدها لما رآه شابًّا، لم يثِق به، وطلب طبيبًا آخر يكبُره سنًّا. فخرج العرَّاب من البيت، رافضًا أُجرة الكشف.

ظلَّ العراب يتذكر حبيبته، حتى استقرت سيارته أمام فرع البنك الأهلي، المجاور لقسم طب المناطق الحارة. نزل منها يتحسَّس موضع قلبه، لا تدري إن كان لعِلة، أم أنَّ جرحًا غائرًا يَخِزُه. نظر حوله ثم ضحك قائلًا: أكيد أبهج لسه فاكر الحكاية دي.

الفصل الرابع

كان في شجرة مكان التربيزة دي.

قالها الدكتور أحمد خالد توفيق، قاصدًا طاولةً بالمطعم الكائن بشارع النحاس بطنطا، والذي يعرفه جيدًا، ويُصيبه الشجن كلما مر بجواره.

لم يكن المطعم في حقيقته، سوى أطلال بيت أبهج أديب، بعد أن بِيع وهُدم، وجُرفت حديقته الملأى بالطيور، وبُني مكانها ذلك المطعم الكبير. ربما لم تكن مقاعده الخشبية سوى أشجارٍ زرعها صاحبه، قد تعرفه لو جاء إليها، لكن أبهج لم يعُد يجرؤ على أن يمر في شارعه القديم، لا لشيء، غير أن نفسه لا تطيق هذا الشعور القاسي.

بعدما أنهى العراب يومَه الجامعي، لم يرجع إلى بيته كعادته، بل جاء إلى هنا. ولم يكن مجيئه بحثًا عن أبهج، لكن لأن صاحبه ومكان بيته القديم، يعرفان عنه ما لا يعرفه عن نفسه.

***

بينما يدور بعينه بين جنبات المكان، باحثًا فيه عن بعض ذكرياته، تلاقت عينُه بعين امراة، تنتظر طعامها وحيدةً. فأحسَّ بشيءٍ من الحرج، ونظر بعيدًا. لو كان أبهج بجواره الآن، لجنَّبه كل ذلك. هو يعرف موقفه من المرأة بشكلٍ عام، فقد عانى العرَّاب من تناقُض

العواطف تجاهها، هو يُحبها ويكرهها في الوقت ذاته، لذلك ظل قلمُه متأرجحًا، يقسو عليها أحيانًا، ويسخر منها في أحيان أخرى.

أيضًا؛ كانت سبيلَه لنقد المجتمع، وفضح مشكلاته، وكثيرًا ما قامت الرواية على أدوار بعضهن، منهن عبير بطلة «فانتازيا»، و«برناديت» في «سفاري»، وإيناس في «الجاثوم»، ولا ننسى ماجي ماكيلوب، حبيبة رفعت إسماعيل وشريكته في «ما وراء الطبيعة».

ربما يعود سبب موقفِه تجاهها، إلى نشأته في مدارس تفصل بين الأولاد والبنات. حتى في الجامعة، تمنَّى لو وجد فرصةً لتتكشَّف له عوالم المرأة، لكن يد الجماعات الإسلامية المتشدِّدة، التي سيطرت على الجامعات المصرية في الثمانينيات، صنعت حاجزًا بين الشباب والفتيات حال دون ذلك.

كان حاجزًا دينيًّا يصعب اختراقه، وجدارًا مرتفعًا، لو تسلَّقه أحدهم لاخترقت قلبه أسنته المُدببة، وسقط مقتولًا بحكم الوصاية الدينية. تلك الوصاية سمحت لشباب لم تكتمِل لُحاهُم، أن يُحرِّموا جلوس الشباب جانب الفتيات. فصنعوا فصلًا كاملًا بينهم، وبقيت المرأة بعيدةً وغامضةً.

يقول الدكتور أحمد:

– كان واضح في دفعتنا إن البنات مذعورين من الأولاد، فما كانش بينا علاقات، كانت العلاقات بعيدة جدًّا ومش صحية، مبالغ فيها قوي، ورمانسية زايدة، أنا أجهل المرأة، زي ما بحبها زي ما بكرهها.

لم يترك العرَّاب رفعت إسماعيل يتزوَّج من حبيبته ماجي ماكيلوب. الحسناء الاسكتلندية، الرقيقة الهشة «التي تمشي على العشب دون أن تثني منه عودًا»، لاقتناعه أن القمر جميل طالما ظلَّ بعيدًا.

احتلت «ماجي» كيان رفعت إسماعيل، ملكت مفاتيح روحه. فهي تمشي فتفوح منها رائحة الكون. من ينسى نظرتها له بعينها الزرقاء الصافية، وسؤالها: ستظل تُحبني للأبد؟.. من ينسى جوابه المأثور بسحرها وإثارتها ورمانسيتها:

- **حتى تحترق النجوم وحتى تفنى العوالم..**

خلق رفعت إسماعيل أسبابًا جديدةً للحب، أحب «ماجي» لذكائها؛ لأنها تفهم دُعابته. فهل حقًّا لم يتزوجها حفاظًا على حُبهما من الضياع؟ أم أن كاتبه رأى نفسه فيه، فأذاقه مرارة الفراق، وظلَّ ينعتُه بالجُبن، وأنه اختار العيش وحيدًا والموت وحيدًا، عكس العرَّاب الذي كان أكثر منه شجاعةً، فتزوج وكان له أسرة وأبناء.

الآن، يجلس العراب في المطعم وحيدًا، متسائلًا: هل سيذكر رفعت كل ذلك؟.. هو لا يخشى أن يسهو عن شيء يستغلُّه الآخر، لكن ثمة حنين في كل أمر قديم. هو يذكر يوم أبلغ زملاءه أنه سيخطب قريبًا. ففرحوا وأحاطوه سائلين عن العروس. أخبرهم أنها الدكتورة منال، التي تعمل في قسم الصدر، المقابل لهم. أحسَّ الجميع أن صِلة قرابة خُلِقت بينهم وبين القسم الذي تعمل به. أصبحوا يذهبون إليها كلما احتاجوا شيئًا في تخصُّصها، وهي لا تتأخر عنهم. كانت فتاةً شديدة التواضع والأدب.

كان والد الدكتورة منال قد سمع به. يعرف أنه شابٌّ حسن السمعة، يعمل طبيبًا في مستشفى جامعة طنطا.

أيضًا قبل سنوات، سقط والد العراب في الشارع مغشيًّا عليه، صدفةً كان يمر شقيقها بجانبه، فساعده وحمله إلى البيت، تذكَّر العراب موقف أخيها فور رؤيته، فجرَت بينهما حالة من القبول، أخذت شكلًا من أشكال الصداقة.

لَمَّا تمت الخطبة سُمِح لهما بلقاء أسبوعي، يجلسان فيه تحت رقابة أسرية، يتبادلان الحديث والآراء. أثناء ذلك وجد كلٌّ منهما في الآخر مساحةً من التفاهم، تحولت مع الوقت لمشاعر حُب، ما جعل الشاب المُولَع بالقراءة والكتابة، ينظم القصائد الغرامية في خطيبته، ليقرأها عليها في كل زيارة.

ترك العراب شقة والده في شارع البحر، وسكن في شقة بالطابق الرابع بنفس البيت الذي يسكنه أهل عروسه، تحديدًا في ٩ شارع ثروت بحي ثان طنطا، فلم يعد هناك ما يربطه بسكنه القديم، غير ذكريات تجلب الحزن أكثر من الونس. تزوَّجا في ١٩٩٣، فأصبح أهل زوجته بمثابة أهله. وجد في أمِّ زوجته عوضًا عن والدته التي ماتت في صباه، فكان بارًّا بها، يزورها دائمًا. تُوفي والد الدكتورة منال بعد إتمام الزواج بفترةٍ قصيرة، فزاد تعلُّقه بوالدتها، واعتبرته ابنًا لها.

كل من أعطاه الدكتور أحمد خالد توفيق رقم هاتفه المنزلي، يعرف أنه غالبًا لا يُجيب على الهاتف، لذلك كان يصحبه بورقةٍ صغيرة كتب فيها رقم حماته، ليتَّصِل عليه إن كان الأمر ضروريًّا. فلم تكن أُسرته تُجيب على أرقام الهواتف الغريبة. كانت «حماته» تُرحب بمن يتصل.

تطلب منه أن يترك اسمه، ثم تُودِّعه بحفاوة ومحبة. لم يذكر أحد أنها تذمَّرت، أو قابلت اتصاله بغضب، كما لم تنس أبدًا أن تُخبر زوج ابنتها بأسماء من اتصلوا به، رغم كثرة الاتصالات وتعدُّد الأسماء.

اعتاد العرَّاب أن يصعد أربعة طوابق يوميًّا، ولأن البيت كغيره من البيوت المجاورة، يخلو من الأسانسير، كثيرًا ما كان يقف على درجات السلم ليلتقط أنفاسه، ثم يواصل الصعود. لكن قبل كل ذلك، اعتاد ألا يدخل شقته قبل أن يمرَّ على حماته، ولو لمرةٍ واحدة في اليوم، ما وطَّد العلاقة بينهما، وجعل لكلٍّ منهما مكانةً خاصةً في قلب الآخر، فمحبتهما لبعضهما يعرفها الجميع، وكثيرًا ما يحكي عنها ابنه «محمد» قائلًا:

- * هو كان بيحب تيته قوي.. بيحب القعدة معاها وسماع حكاياتها والاحتفال معاها بكل المناسبات، كمان الخوف والقلق عليها من أي تعب. وهي كمان بتحبه قوي. كان بينهم علاقة كويسة جدًّا، علاقة الأم والابن.. وجدتي اتأثرت قوي لما اتوفَّى لدرجة إنهم حسبوها والدته في مراسم الدفن والعزاء.

***

تمنَّى الدكتور أحمد خالد توفيق، لو يصطحب معه إلى المناظرة أبهج أديب، بالتأكيد سيُساعده، لكن ذلك ليس ضمن اتفاقه مع «الآخر». تخيل رفعت وهو يسأله أيهما صاحبه؟ فيعرفه «أبهج» دون تردُّد، هو يُميزه بين ألف شبيه.

انتبه العرَّاب إلى النادل وهو يضع الطعام أمامه، لم يشغله إن كان طلبُه مكتملًا أم لا، فقد جاء باحثًا عن أجوبةٍ لأسئلةٍ محتملة. لكن هل من الممكن أن يسأله طبيب أمراض الدم الماكر، عن نوفمبر 1994؟.. بالتأكيد لن يُغفِلَه، ففيه حدثان جلَلان، لم يشاركه فيهما أبهج أديب. الأول طال مصر كلها، والثاني كان من نصيبه وحده.

في يوم 2 من شهر نوفمبر 1994، وقع حادث درنكة الشهير، أكبر مأساة وكارثة طبيعية في تاريخ البلاد، والذي راح ضحيته أكثر من 600 شخص، غالبيتهم من محافظة أسيوط. إثر موجة طقس، صُنفت كأقوى موجة طقس سيئ تضرب مصر في الخمسين عامًا الأخيرة.

الأمر بدأ بوجود مُنخفَض جوي متوسط القوة، قادم من جنوب قارة أوروبا، وانتهى بكارثةٍ مناخية. كانت البداية في الساعة الثالثة من فجر يوم 2 نوفمبر 1994، حيث تعرَّضت محافظة أسيوط بجنوب مصر، لأمطارٍ فيضانية، استمرت حوالي 3 ساعات دون توقف. تسببت الأمطار في غرق القرية بالكامل، وتسبب الاندفاع الطوفاني للمياه في تحطُّم الطرق وانهيار المنازل، وجرف كل هذا باتجاه مخازن تكرير البترول، مما أدَّى لانفجارها واحتراق باقي القرية.

كان الوضع مُخيفًا، فالمياه هدمت المنازل. وأهلها الذين هربوا إلى الشوارع طاردتهم النيران المستعرة، فمن لم يمُت غرقًا مات حرقًا، ومن بقِيَ حيًّا ظل مغروسًا في الطين، لا سقف يمنع الماء ولا جدار يصدُّ الريح. ورغم انتقال الحالة الجوية إلى أغلب محافظات مصر لاحقًا، حيث تعرضت المحافظات لأمطارٍ شديدة الغزارة بعد الفجر،

تسببت في ارتفاع منسوب المياه في الشوارع، بصورة لم تشهدها مصر منذ أكثر من 60 سنةً، إلا أن التاريخ حفظ الحادث باسم قرية درنكة، الواقعة في جنوب مصر.

كغيره من المصريين، تأثر الدكتور أحمد خالد توفيق بالحادث، لكن بعد مرور 19 يومًا، جرى في بيتِه ما جعله يُقاسي الأمرَّين وحده. في منتصف ليل 21 نوفمبر 1994، وبعد سنة تقريبًا من زواجه، كانت الدكتورة منال تُعاني آلام المخاض، تتعالى صرخاتها إيذانًا بانقضاء شهور الحمل، وإعلانًا أن الجنين يبحث في الأرض عن موضع قدَم. كل ذلك في ظروف ميلاد صعبة، جعلت من الذهاب إلى الطبيب أمرًا ضروريًّا.

أحضر سيارة صديق له، فهو لم يكُن اشترى سيارته بعد. أجلس زوجته في المقعد الخلفي، وتوجَّه إلى المستشفى. كانت الولادة متعثرة، فالطفل وُلِد بحبلٍ سُري ملتفٍّ حول رقبته، جعل لونه أزرق، وكاد يخنقه. في غرفة العمليات، صرخ الدكتور عبدالرحمن المشد، الطبيب الشهير، وصديق الأب، قائلًا: **هموت ابن أحمد خالد توفيق**. لكن نبوءته لم تتحقَّق، وعناية الله أنقذت الطفل، فقال الوالد: سمُّوه محمد.

جاء «محمد» ليشارك أباه وِحدتَه، يشدُّ أزره، ويخلق بينه وبين الدنيا رابطًا لا ينفك. وظل هو الابن البكر المُدلل لأربع سنوات، تجرع فيها المحبة كاملةً، تحمله أمُّه لساعات، وقبل أن تُنزله إلى الأرض تحتضنه جدته، تهدهده وتغني له. حتى جاءت شقيقته «مريم» إلى الدنيا.

في يناير ١٩٩٨ كان الناس يطمعون في صورةٍ يلتقطها لهم أحمد زكي، أو بالأحرى مصور الفوتوغرفيا سيد غريب، بطل فيلم «اضحك الصورة تطلع حلوة»، الذي جاء مهاجرًا من بلدته إلى القاهرة، بحثًا عن مكان قريب من كلية طب القصر العيني، التي التحقت بها ابنته تهاني.

كان الجميع متأثرين بقصة وحيد حامد، التي أخرجها شريف عرفة إلى الشاشة. يَعذرون الأب لخوفه على ابنته من وحشة القاهرة. مُشفقين عليها من زميلها، الذي نسج خيوط الحُب حولها. وفي حين يُحاول الأب إنقاذ ابنته، ردَّدَ الناس معه «بس دا لا بيتمنع ولا بيتحاش».

في تلك الأثناء كان العراب ينتظر قدوم مولودته، لتبدأ قصتهما معًا، وتضحك له الدنيا ضحكةً حانيةً. وُلدت «مريم» في 28 نوفمبر ١٩٩٨. أي بعد عرض الفيلم بعشرة أشهر تقريبًا، فتعلَّم الأب منه الخوف على ابنته.

احتلت مريم قلب أبيها. لكن كما منحته المحبة، أعادت إليه خوفه القديم. هو الذي خاف في طفولته من العفاريت، ومن جنود عبد الناصر، ومن سور المدرسة، وحينما كبر كان يخاف من الغد، وما سيحمله، أصبح يجتمع رُعب الدنيا في اللحظة التي ينتظرها فيها أمام مدرستها، وتتأخَّر بعد خروج الأطفال، وتخرج وعلى وجهها علامات الارتباك.. فيجد نفسه مُرددًا: مريم مالها؟! ليس شرطًا أن يكون هناك خطر عليها، يكفيه أن تغيب عن عينه لحظات، ليتَّقد الخوف داخله.

عاش العراب مع أبنائه كصاحبٍ لهما، يتشاوران معه، فلا يفرض عليهما رأيًا. يختلف مع محمد أحيانًا، يتشاجران، لكن لا الابن يُطيق أن يغضب والده، ولا الأب يتحمَّل خصامه. حتى عندما كبر محمد ووصل إلى الثانوية العامة، وضاعت منه طب على درجتَين، لم يغضب العراب، بل كان فرحًا بدخوله كلية الصيدلة، وابتعاده عن كلية طب، التي رأى أنها تقصف العمر.

كان التجمُّع على الغداء في المنزل فرضًا عائليًّا. يجلس الجميع، يقتسمون الطعام ويتباحثون في مشاكلهم، مشاكل دراسة الأبناء، أو مشاكل الأب مع تعطُّل حركة الطريق، وضياع وقتٍ كان ممكنًا أن يتعلم خلاله لغةً أخرى. يطرح العراب على أُسرته كتاباته الجديدة، يحكي لهم عن مغامرة يخوضها رفعت إسماعيل، أو رحلة قام بها بطل سلسلة «سافاري» بين أدغال الكاميرون، فيُبدون رأيهم فيما يكتبه، يستحسنونه أحيانًا، وينتقدونه أحيانًا أخرى. لذلك رغم أن أحدهما لم يرث عنه حُب القراءة أو الكتابة، إلا أنهما يعتبران نفسيهما شركاء في أعماله الإبداعية.

العراب الذي جعل الشباب يقرءون، لم يكن من بينهم أبناؤه، القراءة في حقيقتها فِعل ممل، يحتاج إلى رغبة تدفعك إلى أن تُدقق في الأحرف السوداء، حتى تصلك الحكاية، فأما تأسِرُك، أو تفقد رغبتك في استكمالها. الأمر ينطبق على أي شخص، حتى وإن كان والده الدكتور أحمد خالد توفيق.

يقول ابنه محمد:

- **القراية لطيفة طبعًا، لكن أنا مش بقرأ كتير.. بس بحب الفن بصوره؛ السينما والرسم.. وكانت علاقتنا بالقراءة والمعرفة وخلاصة التجارب عن طريق موسوعة أدبية وعلمية اسمها أحمد خالد توفيق، كان بيِغنينا عن إننا نبحث بنفسنا، كان عالَم متكامل مش محتاجين حاجة معاه.**

وكما كان والد الدكتور أحمد خالد توفيق يصطحبه إلى السينما، أيضًا بقي على تلك العادة مع أبنائه. فكثيرًا ما كان يأخذهم إليها، يحدثهم عن الأفلام ويرشح لهم ما يُحب، فهو الخبير، المُطلع على أغلب المدارس السينمائية العالمية. أيضًا بعد ظهور شرائط الفيديو، كان يستأجرها لهم من محل اسمه «مارشال»، يُشاهدونها معًا، ثم يُعيدونها ويأخذون شريطًا آخر.

هو يقول:

- **في جزء خبيث في شخصياتنا، إحنا بنحاول نعيش تاني عن طريق أطفالنا، يعني مش بنستكفي باللي إحنا عشناه لحد دلوقتي، لأ بنبدأ حياتنا تاني، فأنا بجيبهم وبقعد اتفرج عليهم بحسِّ إن أنا بتولد من جديد وبشوف كل تجربة من الأول».**

***

كان يجلس بالقُرب من باب المطعم، فجأةً قام أحد الزبائن عن مقعده وتوجَّه إليه. ظل العرَّاب يتابعه حتى اقترب منه سائلًا:

- إزاي حضرتك يا دكتور أحمد؟
- أهلًا وسهلًا.
- أنا بقرأ لحضرتك من زمان جدًّا.. تقريبًا من كتاب «مصاص الدماء وأسطورة الرجل الذئب».
- يااااه.. دي أول قصة اتنشرت في «ما وراء الطبيعة».
- أهو أنا بقى متابع حضرتك مع أول قصة تقريبًا.

***

فرح الدكتور أحمد خالد توفيق بحديث الرجل، الذي سرعان ما انصرف ليُكمل طعامه. فظل هو في مكانه يتذكر تلك القصة. كانت هي الرواية الأولى التي بدأ بها رفعت إسماعيل حكاياته عام 1959. لكن ثمة علاقةً ما بين أبهج أديب وتلك الرواية، فقد كانت سببًا في تصدُّع علاقتهما في فترةٍ ما.

وقع الخصام بينهما بعد التخرج، تحديدًا في سن الـ 30. فبعد صدور أول كتب العراب، حمله فرحًا إلى بيت صاحبه، كأنه يُريد أن يضع بين يدَيه، ثمرة قراءتهما، وحلمهما الذي تمنَّياه كثيرًا. ظل طوال الطريق يُخيل له ردة فعل أبهج، ظنه سيرقص فرحًا، سيحتضن الكتاب وتدمع عيناه، لكنه لما وصل إليه وأهداه كتابه، وجد عكس توقُّعه، فقد كان لقاءً فاترًا، كمن يقتسِم مع صاحبه شربة ماء، أو أقل اندهاشًا من ذلك.

مرَّ وقت كافٍ لقراءة القصة، بعدها التقى صاحبه، سأله عن رأيه، فقال أبهج: «**إيه العك اللي بتكتبه ده؟**». وجد العرَّاب ردَّه متعنتًا وجافًا، لا سيما أنه يعرف قيمة ما يكتب، صحيح يرى أنه كتب عكًّا كثيرًا بعد ذلك، لكن تلك القصة لم تكن عكًّا، ومن ثم غضب غضبًا شديدًا، واحتدَّ على صاحبه، ووقعت بينهما مشاجرة عنيفة، شعر على إثرها بافتراق طريقيهما.

مرَّت الأعوام، تزوَّج كل منهما، فلم يحضر أحدهما فرح الآخر، ولم يُشاركه لحظات قدوم أبنائه إلى الدنيا، وإن ظلَّا يذكران بعضهما سرًّا، كلما سمع أحدهما أغنيةً عرفاها معًا، أو رأى أحدهما فتاةً يعرف أنها قد تروق لصاحبه. أخذتهما الدنيا، وقف كلاهما في معترك الأيام، ليس لأحدهما من يَحميه من طعناتها، غير أن كلًّا منهما يعرف أن صاحبه يجلس بعيدًا، يُقاسمه الذكريات والحنين لأيام خوالٍ.

وكما أعاده أبناؤه إلى طفولته، أعادوا إليه أيضًا صاحبه القديم، ساعدوه دون قصد، فهم لم يعرفوا يوم اشترَوا كلب هاسكي، أن والدهما لن يحتمِل حنينه، وأن ذكريات قديمةً تقرع جدار قلبه، وأن حديثًا مع صاحبه عن كلاب الهاسكي، يكاد يفتك به.

أبهج هو الوحيد الذي قاسمه ذكرياته عن كلاب الهاسكي، والإسكيمو، والزحافات التي تشقُّ طريقها عبر الثلوج. كم تحدَّثا معًا عنها، وكم رأياها في السينما، فكيف يصبر على حنينه، بينما ينبح الكلب بالقُرب منه.

يذكر العرَّاب يوم أمسك بسماعة الهاتف المنزلي، واتصل على صاحبه أبهج، فأجابه مذهولًا غير مُصدق، متوقعًا أن في الأمر

مصيبةً، لكن قبل أن تلعب الأفكار برأسه، قال له: تصدق إن أولادي اشتروا كلب هاسكي.

عاد الصاحبان، وكأن لا سنين مرَّت ولا خصام وقع، حتى إن طباعهما لم تتغير، أبهج لم يفقد اهتمامه بالأشغال اليدوية التي تعلمها من أبيه، الفرق الوحيد أنه بدلًا من أن يُصمم ألعابًا له ولصاحبه، راح يصنعها لابنته مريم. صمَّم لها ببعض قطع الخشب بيتًا ساحرًا للدُّمى. وصفه العرَّاب بأنه كان «له نوافذ زجاجية تفتح وتغلق، وكشافات، وأماكن لانتظار السيارة».

***

- **الحساب لو سمحت.**

قالها العراب للنادل، الذي سرعان ما أحضر له الشيك، فترك الحساب أعلى الطاولة، ولم يفُتْه أن يترك له «التبس»، ثم انصرف حاملًا بعض ذكرياته، تاركًا بعضها أسفل الطاولات التي قطعت من حديقة صاحبه.

***

في المساء، دخل الدكتور أحمد خالد توفيق شقته واجمًا وحزينًا، سألته زوجته: **أحضرلك العشا.**

أجابها دون أن يلتفت: **لا شكرًا.. اتعشيت برة.**

دخل إلى مكتبه وأغلق الباب خلفه. اتصل على أبهج أديب، وما إن سمع صوته عبر الهاتف، حتى قال له ضاحكًا: **إزيك يا أبهج.. تصدق أنا النهارده اتعشيت في نفس مكان أوضتك القديمة.**

الفصل الخامس

المسافة من فرع البنك الأهلي وصولًا إلى مبنى طب المناطق الحارة، ليست كبيرةً. على يسار مبنى البنك المجاور للبوابة الرئيسية للجامعة، تقف بوابة صدئة، يَعبر منها الدكتور أحمد خالد توفيق، قاطعًا ممرًّا قصيرًا، وصولًا إلى المبنى بطوابقه الثلاثة.

على اليمين يقف المبنى، منتظرًا العراب بوجهه البشوش، ليوزع الضحكات على المرضى، قبل الدواء الذي يصرفه لهم، كلَّما احتاجوا إليه.

قبل دخوله من بوابة المبنى، وقف يلتقط أنفاسه. المسافة التي قطعها سيرًا لا يمكن اختصارها في دقائق، للقلب حسبة أخرى، فعلته تجعل من خطوته عمليةً شاقةً، وخطوته تترك رئتَه عطشى للأكسجين.

خلال وقفته، راجع ورقة التعليمات المعلقة على الجدار، قرأها بصوتٍ عالٍ:

***ممنوع الزيارة قبل الساعة 12.**

***ممنوع وجود مرافق رجل في عنبر السيدات.**

تحسَّسها بيده، ثم مشى قاطعًا ردهة المبنى، حتى وصل إلى السُّلم المقابل للمدخل، قاصدًا مكتبه في الطابق الثاني، لكن قبل أن يصعد السُّلم، اخترق أذنه صوت أنثوي ضاحك.

- **إيه يا دكتور أحمد.. مش هتقدر تطلع السلم ولا إيه؟**

فأجاب ضاحكًا: **خلاص بقى كبرت وتعبت.**

كانت مدام نادية سعد هي صاحبة الصوت، بضحكتها التي عرفها المرضى والعاملون. وبساطتها التي تُشعرك فور رؤيتها، أنك تعرفها منذ سنين، ربما قابلتها في المواصلات العامة، أو جاورتها في طابور العيش. عرفها الدكتور أحمد، ممرضةً شابةً، منذ أكثر من ثمانٍ وثلاثين سنةً تقريبًا، هي من استقبلته في قسم طب المناطق الحارة، طالبًا في الامتياز:

- **أيام الامتياز دخل علينا جديد، كان لسه جاي، قولنا له إيه دا أنت جاي عندنا الباطنة؟ قال آه، فقعد معانا بقى. كان هو وزميل ليه، لكن زميله راح الجيش، وهو ما راحش، علشان هو وحيد. قعد معانا فترة الامتياز ولما بقى مدرس مساعد، ولما كان مدرس.. كل حياته كانت في العنبر معانا.**

رغم السنين التي تركت دقيقها الأبيض على خصلات شعرها، وبعض التجاعيد على وجنتيها، ما إن تتحدَّث مدام نادية عن العرَّاب، حتى تراه طبيبًا شابًّا، يسكن مع أهله فوق فندق ليمونوس بشارع البحر. تراه الممرضات كلما مررنَ من هناك، جالسًا في شرفة شقته، يلوِّح لهن بالسلام فيضحكن له.

حضرت مدام نادية مناقشته لرسالة الدكتوراة، جلست بين أهله ومعارفه، قاسمته القلق، وقاسمهم الفرح، وعن مناقشة الرسالة تقول مدام نادية:

- **كانت حاضرة أخته اللي قاعدة في السنطة، وكانت لسه زوجته جديدة معاه، كنت قاعدة جنب أخته اللي اتوفت، كانت بتجيه على طول، وكان بيروح لها.**

كان ذلك في يوم الخميس الموافق 23 مايو من العام 1996، عرض الطبيب أحمد خالد توفيق فراج على المشرفين رسالته، كان موضوعها في طب المناطق الحارة، المُهتم بالأمراض والأوبئة التي تظهر في المناطق الحارة والاستوائية.

تعلقت أعين الحضور به، كان مُدهشًا وممتعًا كعادته. اختصرت وقفته ليالي من السهر والتعب والإصرار على المعرفة.

أشاد المشرفون بالرسالة، ومنحوه درجة الدكتوراة، ففرح كمن يتذوَّق الفرح لأول مرة، يقترب منه ويخشاه. أما المُمرضون والعمال فتجمَّعوا حوله، يزغردون ويرقصون، كأن ابنًا لهم هو من نال الدرجة العلمية الرفيعة.

عرفوه بعدها ملتزمًا وبشوشًا، يحضر إلى المستشفى مبكرًا، يُلقي عليهم السلام، فيردُّون تحيته مُبتهجين، ثم يمشي في الطرقات ليطمئن على مرضاه، سائلًا عن حالة كل مريض. يطَّلع على تذاكر الكشف، ويسأل المرضى عما ينقصهم، سواء كان علاجًا أو أموالًا.

يُحب العراب المسنَّات، يمنحهن عنايةً خاصةً. يُحببنَه أيضًا، ويفرحن بزيارته. يقف معهن فترةً أطول، يتحدثنَ عن المرض الذي حدَّ حركتهن، فيقول إنهن صبيَّات ويُمكنهن الزواج.. يضحكن جميعًا. يصرف لهن الدواء، ويطلب بعضه من صيدلية خارجية، كثيرًا ما يدفع ثمنه. كانت مدام نادية ترى في محبته، حنينًا لوالدته، التي توفيت في صباه، فكان كمن يبحث عنها بينهن.

وقف العرَّاب على بُعد خطواتٍ من مدام نادية، أقدم المُمرضات في قسم طب المناطق الحارة، بينما تجري بينهما عشرات السنين، قضياها معًا داخل هذا المبنى. فلو عرف العراب ما تعرفه عنه، لربما استعان بذاكرتها في معركته مع الآخر، أو لطلب من رفعت إسماعيل شهادتها.

مدام نادية سعد، الممرضة التي حضرت مناقشته لرسالة الدكتوراة، رأته أيضًا مشرفًا على رسائل الماجستير، فكان رحيمًا بطلابه، يأخذ بأيديهم، ويمدُّهم بالمراجع. يُعاملهم بأبوَّة مفرطة، فما إن عرفت من أحدهم أنه من سيشرف على رسالته، بشَّرته بالنجاح.

- **عكس الدكاترة المعقدة واللي تعقد الطالب، إنما دا كان بيسهل كل حاجة، وكان سايبها كدا بالبركة، تحس إن الدكتور أحمد خالد مش مدقق قوي ومش متعصب زي الدكاترة التانية، لا كان سايبها كدا، ريلكس خالص، ولا يشيل الهم.. نجيب لك القهوة؟ يقول لك هات القهوة، وكان يشرب قهوة وسجاير ماتعدش.. زي ما انت عايز في اليوم.**

كان لشهر رمضان مكانة خاصة لدَيه، يعطف فيه على المرضى وعُمال النظافة، ويُخصص لهم مبلغًا ثابتًا من راتبه كل شهر.

كان أشد ما يُغضبه، أن تتحدث طبيبة شابة مع مريضٍ بشكل غير لائق، كأن يعلو صوتها حين يسألها عن شيء. لم يسامح في ذلك أبدًا، لكنه أيضًا كان رحيمًا في عقابه، فكان يُعطي المُسيء نبطشيةً إضافيةً.

تقول مدام نادية:

- **كان يقول لها إلا المريض، انت ما تعرفيش هو فيه إيه، إنت عارفة هو زهقان ليه؟ كان هياكل الحكيمة اللي تزعق للمريض، ولا ما تديهوش علاج، ولا قال لها قيسي الحرارة وقالت له نسيت.**

في زواج بناتها، وقف إلى جوارها، كان يُرسل بوكيه ورد إلى منزلها، ثم يحضر الفرح في القاعة، كما كان دائم السؤال عن أحوال زوجها. لم يفعل ذلك معها فقط، بل ومع كل زملائه تقريبًا.

كان العرَّاب يحرص على حضور أفراح تلامذته، فلا تنسى مدام نادية يوم فوجئوا به هو وصديقيه الدكتور أسامة نجم والدكتور وائل وحيد، وقد جاءوا إلى فرح طبيبٍ شابٍّ في المحلة، وعلى بساطة الأمر بالنسبة للعراب، إلا أن العريس وقف مزهوًّا وسط أهله، فخورًا بأستاذه.

***

مكتبة
t.me/soramnqraa

وصل العراب إلى الطابق الثاني. وقف أمام مكتبه للحظات، ثم دخل دون أن يلتفت إلى اللافتة الذهبية، المعلقة بجوار الباب.

كانت اللافتة تحمل بالترتيب من الأعلى إلى الأسفل، أسماء: (أ.د محمد شرف الدين- أ.د أحمد خالد توفيق- أ.د رأفت صلاح). وكان ذلك المكتب في الأساس، للدكتور محمد شرف الدين، الذي كان أستاذهم وبمثابة أبٍ لهم، لكن محبةً في الدكتور أحمد خالد توفيق، طلب أن يشاركوه في مكتبه، بل وطلب من نادية سعد، كتابة اللافتة بالأسماء، حسب الترتيب الموجود، مُتخليًا بذلك عن مساحته الخاصة.

جلس العرَّاب في مكتبه شاردًا، ينظر إلى الجدار المقابل له في صمت. قطع شروده طَرقات الباب، كانت مدام فايزة، الممرضة الأربعينية، جاءت تسأله إن كان في حاجة إلى أي شيء. لكنه شكرها فانصرفت.

لم تكن خدمته من مهام عمل المُمرضة الشابة، لكنها كانت تحمل له تقديرًا خاصًّا. فهي تحسب نفسها من أبناء العراب، فهي تعرفه، منذ كانت فتاةً بضفائر، تضع قصصه أسفل وسادتها لتقرأها ليلًا.

في طفولتها، كانت فايزة محبةً للقراءة، بدأ تعلُّقها بها في المرحلة الابتدائية، لكنها اكتشفت قصص الدكتور أحمد خالد توفيق، في الصف الثالث الإعدادي. ظلت تقرأ له حتى الثانوية العامة، عاشت مع أساطيره، وصاحبت أشباحه وأبطاله في مغامراتهم. وكما سارت خلفه فتاة صغيرة تحمل كتابًا، مشت وراءه أيضًا وهو يتفقد مرضاه، فعرفته طبيبًا متميزًا، وأديبًا بارعًا.

في العام 1999 استلمت فايزة عملها في طب المناطق الحارة بجامعة طنطا. فجأةً وجدت أمامها كاتبها المُفضل، الذي طالما باتت الليالي تقرأ قصصه، في حالة من الرعب والنشوة، فتُلقيها إذا ما حل الظلام، مخافة الأشباح، وتقبل عليها في اليوم التالي، علَّها تعرف مصير رفعت إسماعيل. لم تُخبره بشيء من ذلك، لم تقُل له ولو مرةً واحدةً إنها ممن تربَّوا على قصصه، فقد ظلت تنظر إليه باعتباره أستاذ دكتور، بينما هي ما زالت ممرضةً صغيرةً:

- أنا كنت بتحرج أصلًا أكلمه، لما كنت بقف قدامه كنت أقول له حضرتك ويا فندم، مش اللي أنا مغرمة بقصصه وكتبه وكدا، لكن كطبيب هو رئيسي في العمل، ما أقدرش أخلط الطب على الكتابة..

مرت السنوات وتزوجت فايزة. شغلتها مسؤوليات العائلة عن شغفها القديم، انقطعت علاقتها بقصص العراب، لكنها ظلت محتفظةً بشعورٍ أبوي تجاهه. في كل مرةٍ تراه، كانت تتمنَّى لو أفصحت عن محبتها، لكنها لم تستطع، رغم تأكدها من تواضُعه ومحبته للجميع.

نزلت فايزة إلى الطابق الأرضي، لتُلبي حاجة المرضى، في الطريق تذكرت يوم قابلها العراب وهي تصعد درجات السلم. كانت تحمل بين يديها كرتونة أدوية، وقد ظهرت عليها علامات الحمل. غضب يومها بشدة، وأخذ يصرخ متسائلًا، كيف تحمل الأدوية وهي حامل؟ أكدت له أن الأمر بسيط، وأن الصيدلية في طريقها، لكنه اعترض، قائلًا إن في ذلك خطرًا على الجنين، كما أن نقل الأدوية وظيفة العمال، وانتظر على السُّلم حتى صعدت أولًا.

أنجبت فايزة بنتَين، كبرتا ودرستا في الجامعة، وكغيرهما من أبناء جيلهما، أو ربما وراثةً عن أُمهما المُحبة للقراءة، تعلَّقتا بقصص الدكتور أحمد خالد توفيق، فلم تنقطع أعداد سلسلة «ما وراء الطبيعة» و«سفاري» عن بيتها. لكن كما أخفت «فايزة» عن العراب حُبها لِما يكتب، أخفت عن ابنتَيها أيضًا وجوده في مكان عملها، حتى عندما سمعوا أنه يعمل في قسم طب المناطق الحارة، سألوها، فقالت إنه تشابُه أسماء:

- **كانوا هيخوتوني.. كانوا هييجوا معايا كل يوم.**

***

في الطابق الثالث، كان طلاب الفرقة الخامسة، ينتظرونه، وما هي إلا دقائق، حتى دخل قاعة محاضرات تتَّسع لمئة طالب.

حيَّاهم مبتسمًا ثم صعد العراب إلى المنصة، ونظر إليهم صامتًا، كأنه يبحث عن شخصٍ بعينه. ربما كان يبحث فيهم عن نفسه. هو يعرف أن أغلبهم مثله، لم يدخلوا كلية الطب حبًّا فيها، لكن هو مجموع الثانوية العامة، الذي يبخل به الأهالي على كليات المجموع المتواضع. هو مثلًا كان يتمنَّى دخول كلية الآداب، ليُصبح أستاذًا للأدب الإنجليزي، لكن بسبب مجموعه، دخل كلية الطب.

أحبَّ دراسته بعد ذلك، وكان لها أثر عظيم على أعماله الأدبية، فرِفعت إسماعيل درس طب المناطق الحارة، كما عمل علاء عبدالعظيم طبيبًا في الكاميرون، وهو بطل «سافاري»، السلسلة التي تدور أحداثها، في أجواء طبية.

أحسَّ الطلاب بشيءٍ طرأ عليه، فسُخريته أقل حضورًا، كما أن شروده كان ملفتًا ومقلقًا، لكنهم ظلوا صامتين منتظرين أن يبدأ المحاضرة. كان العراب حينها، يرى رفعت إسماعيل في كل الوجوه، تخيَّله هو من يجلس على المنصة، بينما يجلس هو والآخر على كراسي الطلاب، كل منهما في جانب، مُنتظرين أسئلته.. بلع العراب ريقه، ثم رأى بعين الخيال حوار رفعت إسماعيل معه:

- **قول لي بقى.. إيه هو طب المناطق الحارة؟**

- *** بالنسبة لطب المناطق الحارة العنوان غريب شوية، هنا في مصر بنعتبره إلى حدٍّ ما كبِد وجهاز هضمي وحميَّات، وهو علم بريطاني اخترعوه البريطانيين في المستعمرات.**

رأى رفعت يقاطعه قائلًا:

- **ودا إيه علاقته بالأدب.. يعني ليه الكثير من الكتاب والأدباء كانوا أطباء في الأساس؟**

بلع العرَّاب ريقه كمن يستحضر الجواب، ثم قال:

- *** أقرب التفسيرات، إن الاتنين شغالين على الإنسان، أو زي ما قال إبراهيم ناجي يعني: واحد بيعالج الجسد وواحد بيعالج الروح. فهو نفس العالم.. تاني حاجة إن لو في بذرة أدبية خفيفة في الشخص؛ إذا مارس الطب البذرة دي هتزدهر جدًّا.**

كان رفعت إسماعيل متجسدًا في خياله، متشككًا ملولًا، ثرثارًا، ومدخنًا شرهًا. رآه العرَّاب صامتًا، يأخذ نفسًا من سيجارته، ثم

يُقلب النظر بينه وبين الآخر، الذي أحسَّ أثناء ذلك الصمت المُطبق، أن سؤالًا سيُباغته، لكن رفعت كان كمن يُجهِز على كاتبه، فسأله:

- **يمكن كلامك مُبرر لاتجاه كتير من الأطباء للكتابة.. لكن تقدر تقول لي إزاي قِدرت توظف معرفتك بالطب في قصصك؟ وهل الطب أضاف للأدب شيء؟**
- *** الطب يمكن أضاف للأدب 60٪ من اللي أنا كتبته تقريبًا، واللي متابعني كويس يعرف إن الطب ليه دور أساسي جدًّا في قصصي، ولازم فيه خلفية طبية، بل إن العملية فاضت بيا وطلَّعت سلسلة كاملة، كل قصة فيها معتمدة على لُغز طبي أو مرض، وهي سلسلة «سفاري». وفي ناس بتقول لي إحنا بنذاكر طب من السلسلة دي، علشان كدا بعتمد على إن المعلومة تبقى موثقة كويس، وساعات مُوثقة أكتر من اللازم، ودي بيسمُّوها النغمة التعليمية أو «الـDidactic»، يعني ساعات كمّ المعلومات في القصة يبقى زايد شوية، ويمكن السبب في دا علشان اتأثرت بماكيل كرايتين (Michael Crichton)، أو يمكن علشان اتأثرت بأستاذنا صنع الله إبراهيم في كثرة التوثيق.. لكن في النهاية الطب لِعب دور جامد جدًّا في حياتي.**

***

خلال عمله، رأى العرَّاب مواقفَ كثيرةً فجَّرت طاقته الإبداعية. مثلًا يحكي عن فلاحة مصرية، تُشبه سيدة تمثال نهضة مصر. تدخل إلى المستشفى حاملةً زوجها على كفَّيها، تحمِله وهو كومة عظام، تطلُب علاجه، بينما ما زالت تستند إليه، كما استندت فلاحة التمثال إلى أسدها، حتى وإن كان أسدًا جريحًا.

كيف يرى هؤلاء ولا يكتب إبداعًا إنسانيًّا خالصًا؟ كيف لا يكتب، من عاش موقف الأب الذي جاء بابنته لعمل سونار لها، لشكِّه في حملها، فكشف الجهاز سرَّ ابنته، وألقاه في حجر الطبيب، ككرةِ لهبٍ ربما تحرق أسرةً بأكملها. الإبداع الخالص تجسَّد في ارتباكه وهو يواجه نظرة أبيها، بينما يضع فضيحته أمامه. أطلعه العمل داخل المستشفيات على العالم السري للإنسان، فرأى هزيمته أمام المرض والعوز والعار.

- **خير يا دكتور.. لو حضرتك تعبان ممكن نأجل المحاضرة.**

انتبه إلى صوت الطالبة أسماء خيري، ولم تكن بسؤالها تبحث عن جواب بعينِه، بل أرادت أن تقطع صمتَه الذي طال. أكَّد لهم أن الأمور على ما يُرام، وانتبه إلى الطلاب الواجمين، وبدأ في شرح محاضرته عن مرض الإيدز.

بدأ حديثه عن مرض نقص المناعة المكتسبة، وكيف أن الأبحاث الوراثية أثبتت أن ظهوره الأول كان في غرب إفريقيا الوسطى، في أواخر القرن التاسع عشر. قال إن الوسائل العلاجية للمرض الذي يُسببه فيروس نقص المناعة البشرية، قد تُبطِّئ عملية تطوُّره، إلا أنه لا يُوجَد لقاح أو علاج له.

اعتادت أسماء خيري أن تتلقَّف حديثه باهتمامٍ خاص، حتى وإن كان خارج منهج طب المناطق الحارة، المُقرر عليهم في السنة الخامسة. فهي لا تعتبره دكتورًا جامعيًّا فقط، بل هو كاتبها المفضل.

***

جاءت أسماء للدراسة في كلية طب طنطا، منتقلةً من جامعة الإسكندرية. كانت حينها في السنة الرابعة، وبالرغم من أنها قارئة نهمة لأعماله، إلا أنها لم تتخيل أن تلقاه، حتى رأته يمشي بين طرقات الكلية. اندهشت لوهلة، ولم تُصدق أنها على بُعد خطوات منه، لكن قبل أن تُضيِّع الدهشة الفرصة، حملتها أقدامها إليه، سألته:

- أنت حقيقي دكتور أحمد خالد توفيق؟

فأجابها ضاحكًا: أيوه يا بنتي أنا عادي.

وجدت أسماء في لقائه، ما يُقربها من جامعتها الجديدة. وقد بقِيَت في الأيام التالية، تمشي حاملةً كتُبه، علَّها تنال توقيعه. في المرة الثانية رأته فهرولت إليه، كانت مُمسكةً بقصةٍ له في يد، وفي الأخرى قلم. ودون أن تتكلم، ضحك العراب ووقع لها الكتاب. فعل ذلك بأبوَّة، وترحاب بمحبَّتها، ولم يكتفِ بذلك، بل أعطاها الميل الخاص للتواصل، ورقم هاتفه الشخصي.

بقِيَت طوال الصف الرابع تلتقيه مصادفةً، حتى انتقلت إلى الصف الخامس، ودرست طب المناطق الحارة، وأصبحت تراه كل أسبوع تقريبًا.

تبدأ محاضرة الدكتور أحمد خالد توفيق ما بين الساعة التاسعة صباحًا والعاشرة، ويحضرها عددٌ محدود من الطلاب، لذلك كانت تُقام في قاعة صغيرة، فطب المناطق الحارة من الأقسام المغمورة، التي يذهب إليها الطلاب بأعدادٍ قليلة.

أيضًا شاهدته في لجنة الامتحان الشفوي، رأته يضحك مع الطلاب، لا يُمارس عليهم سلطةً تقهرهم، بل ويُساعدهم إذا ما تعثَّروا في الإجابة، وكثيرًا ما أكد أن دوره توصيل المعرفة، لا العقاب والجلد، فليس ذلك غاية التعليم.

تعرف أسماء أنه لا يتعامل مع طلابه باعتباره كاتب القصص، فهو لا يُحب خلط الأوراق، ومن ثم كان يُفاجأ حين يسأله أحدُهم عن آخِر كتاباته، وكثيرًا ما رفض لقاءهم في كافيه داخل الجامعة، مخافة تأويل الأمور بشكلٍ خاطئ، وإن كانت تذكُر، أن طالبةً سألته عن نهاية سلسلةٍ كان ينشرها على موقع «إضاءات»، فأخبرها بالنهاية، لكنه طلب منها ألا تحكيها لأحد، مخافة أن تحرقها على القراء.

***

انتهى العراب من محاضرته، أغلق البروجكتور، ثم حمل حقيبته، وخرج من القاعة، تاركًا الطلاب يجمعون متعلقاتهم. على الباب فوجئ بـ عمر نبيل، الطالب بكلية طب الأسنان، والمُهتم بالكتابة والإخراج المسرحي.

- **أهلًا يا عمر.. واقف ليه كدا؟**
- **أهلًا يا دكتور.. كنت جايب لحضرتك الفلاشة.**

- شكرًا جدًّا.. هشوف إن شاء الله وهقول لك رأيي.. لو فاضي تعالى معايا المكتب ونبقى ننزل نتمشَّى شوية.

الحكاية بدأت منذ أيام، وقت دَعاه الشابُّ ليُشاهد عرضًا مسرحيًّا من إخراجه، لكن العرَّاب لم يتمكَّن من الحضور، بعدما سافر فجأةً إلى الإسكندرية. وقد زاره بعدها في مكتبه، ليتبين الأمر، فاعتذر له الدكتور أحمد بشدة، وقال «عمر» إن لدَيه فيديو مصورًا للعرض، سيحضره له إن أراد مشاهدته، فرحَّب العراب، وطلب منه ذلك في أقرب فرصة.

سبق أن حضر عرضًا مسرحيًّا للشاب، لكنه لم يُشاهده كاملًا. الحكاية أن عمر طلب من أحد أصدقائه أن يبعث برسالةٍ إلى الدكتور أحمد، يؤكد فيها أن موعد العرض الساعة السابعة مساءً، لكن صاحبه كتب الموعد 5 مساءً، مُعتقدًا أنه سيتأخر كأغلب المشاهير. لكنهم فوجئوا به يحضر في تمام الخامسة، فأجلسوه مع مدير المسرح لساعات، حتى كاد الملل يفتك به.

أما لقاؤهما الأول، فكان لقاءً عابرًا في معرض القاهرة للكتاب، في يناير عام ألفين واثني عشر، وكان قد ذهب مع صديقَين له، أحدهما اسمه أحمد عجلان.

هناك حملته قدماه إلى خيمة المؤسسة العربية الحديثة، فوجده جالسًا بين الدكتور نبيل فاروق والكاتب أحمد المسلماني، والكاتب الشاب محمد فتحي، وأمام كلٍّ منهم طابور من القراء، جاءوا يوقِّعون كتبهم، وكان حجم التباين بين طابور العراب، وطوابير الكتَّاب الثلاثة واضحًا للجميع.

وقف عمر نبيل صامتًا وحزينًا، هو لا يملك كتابًا ليوقع له، في حين كان الحديث معه، حلمًا كبيرًا بالنسبة له. كان صاحبه أحمد عجلان، يملك أكثر من كتاب، فطلب منه أن يُوقع له العرَّاب على أحدها، ثم يُعيده إليه. وافق «عجلان» لكنه طلب أن يكون التوقيع إلى «أحمد وعمر»، فوافق الأخير مُضطرًا.

أخذ الشاب موقعه من الطابور الطويل، وانتظر حتى وصل إليه:

- *** دخلت له أنا، فقلت له يا دكتور اكتب لعمر وأحمد، فقال لي مين أحمد دا؟ قلت له دا واحد صاحبي ما قدرش ييجي، فكان نفسه إن حضرتك تكتب له حاجة، فيا ريت تكتب إهداء ليا وإهداء ليه، فكتب «إلى العزيزين أحمد وعمر، تحية واحدة فقط».**

***

خلال نزولهما من الطابق الثالث، مشى عمر نبيل شاردًا، حتى وقف العراب أمام مكتبه. استأذنه أن يحضر أوراقًا تخصُّه، وأن يضع الفلاشة في حقيبته. هز الشاب رأسه موافقًا، ثم وقف في الردهة، يذكر أول مرة دخل فيها مكتب أستاذه، وأسماء خيري التي كانت سبب معرفتهما الشخصية.

ذلك في العام 2014، وقت كان يكتب في مجلة «ميكروفون» الجامعية، والتي ترأَّس تحريرها الطالب عبد اللطيف الطحَّان. وكان العرَّاب يدعمهم، ويشاركهم إفطارًا سنويًّا في رمضان. وقد تمنَّى «عمر» كثيرًا أن تربطه بالدكتور أحمد علاقة شخصية. أخبر أسماء

خيري بـ أمنيته، فضحكت، وقالت إن الأمر بسيط، واتفقا أن يذهبا إلى مكتبه يوم السبت.

اتصلت أسماء بزميلها في الموعد المُحدد، فوجدته لم يأت إلى الجامعة، لأنه لم يُصدق جدية حديثها، أو أن لقاء العراب سيكون سهلًا، ومن ثم، اتفقا على تأجيل موعدهما إلى الأحد.

في اليوم التالي، كانت أسماء تمشي بجوار زميلها، مختلسةً النظر إلى المرضى. بينما الشاب لم يشغله سوى لقائه بالدكتور، يتخيله جالسًا على كرسي عالٍ، لا تدخل إليه حتى تمرَّ من غرفة سكرتارية أولًا. لذلك فوجئ لما وجد مكتبه عبارةً عن غرفة صغيرة، بها مكتب بسيط. كذلك رآه شخصًا عاديًّا، يرتدي قميصًا وبنطلونًا بسيطًا، فلو رأيته في الشارع، لن تتخيل أنه يحظى بكل هذه الشهرة والمحبة.

رحَّب بهما العراب، وكان عمر سعيدًا باللقاء، وإن ظلَّ صامتًا خجلًا، بينما أسماء تحاول أن تُقدمه للدكتور أحمد على اعتباره كاتبًا مسرحيًا، ومخرجًا متميزًا، وأحد المنضمِّين حديثًا للمجلة.

تحدث الدكتور أحمد خالد توفيق مع عمر، متمنِّيًا أن يقرأ له، لكنه ظل صامتًا مرتبكًا، حتى انتهى اللقاء، وخرج نادمًا لضياع فرصة الحديث مع أستاذه، فأكدت له أسماء، أن ذلك حالُ كل من قابلوه لأول مرة.

قادته الصدفة للقائه، مرتَين في نفس الأسبوع، الثانية أمام المجمع الطبي بطنطا، وكان أكثر جرأةً، فما إن لمحه، حتى أسرع إليه، وحكى له أنه يُعد مسرحيته الأولى، المستوحاة من فيلم سايكو لألفريد هيتشكوك، وأنه لم يكتفِ بإخراجها وإعادة صياغتها، بل وتمصيرها أيضًا.

يعرف العرَّاب هيتشكوك جيدًا، لذلك كان حديثه ثريًّا، فقد حكى كثيرًا عنه، محاولًا كشف سر تفرُّده. كما وصف للشاب البرنامج التلفزيوني، الذي قدَّم فيه المخرج الإنجليزي قصصًا قصيرةً، مُقلدًا طريقة كلامه، وهو يعزف بفمه موسيقى برنامجه.

قاطعه الشاب قائلًا، إنه يحب سلسلة «سفاري» أكثر من «ما وراء الطبيعة»، كأنه بذلك يزيح سرًّا ثقيلًا عن صدره. ضحك، وأكد سعادته بتنوُّع الأذواق، ثم انتقلوا من موضعٍ لآخر، ثم انصرف الدكتور أحمد خالد توفيق، بعد أن تبادل معه رقم الهاتف.

***

مرت دقائق قصيرة على الشاب، يقف شاردًا ينظر إلى الجدار المقابل. يذكر تلك التفاصيل، كأنها جرت منذ ثوانٍ. حتى خرج العراب من مكتبه، ممسكًا بحقيبته. اعتذر عن تأخُّره، ثم نزلا إلى الطابق الأرضي، وخرجا من باب المبنى، مُتجهَين إلى ساحة الكلية.

مشى الشاب بجانبه فرحًا، كانت لحظاتٍ لا يمكن أن ينساها، فقد ظلَّ ينصت لكل كلمة ينطقها، حتى وإن كانت سخريةً عابرةً. كانت الكلية تُنظم معرضًا للكتاب، فطلب من الدكتور أحمد خالد توفيق أن يذهب معه، ليُرشح له بعضها، فقال له:

- **بس دي كلها كُتب مضروبة.**

أجابه الشابُّ دون أن يفهم مقصده: **عادي يعني مش مشكلة.**

ذهب معه إلى فرشة الكتب، كان يجلس جوارها رجل عجوز، وقف منتصبًا فور رؤيته للعراب، فاتحًا صندوقًا خشبيًّا، وهو يقول: **والله يا دكتور أنا سايب الكتب بتاعتك على جنب ومش ببيعها.**

عاتب الرجل بشدة، وبمحبةٍ في آن، قائلًا إنه وأمثاله، يلحقون الضرر بالصناعة، فهم يضيعون على الكاتب أجره، الذي ربما ساعده في أن يُنجز كتابًا آخر. وبينما الدكتور في ثورته، وعمر نبيل يحاول الهروب من شدة خجله، لاكتشافه المقصود بـ«الكتب المضروبة»، ظل البائع صامتًا وجلًا، فقد كان يكنُّ للدكتور قدرًا كبيرًا من الاحترام.

«رشَّح لي عزازيل، قلت له قرأتها طبعًا، رشح لي شيكاغو بتاعة الأسواني قلت له قرأتها برضو.. لغاية ما وصلنا لكتاب «شخصيات حية من الأغاني»، العنوان جذبني، قلت له تمام يا دكتور، أنا أهم حاجة بالنسبة لي تبقى حاجة لذيذة، قال لي لا دا هيمتعك جدًّا، لحد الإشباع.. في كل دا لاحظت إنه مش بيرشح لي حاجة لنفسه، لا عايز يفتح الدنيا على كتَّاب تانيين».

دفع عمر نبيل ثمن الكتاب، رفض الرجل في البداية أن يأخذ النقود، إكرامًا للدكتور أحمد. لكنه ضحك وشكره. أمسك الشابُّ كتابه، ومشى بجانبه، مُتَّجِهين ناحية الباب الرئيسي، وما إن اقتربا، حتى سلَّم عليه، وشكرَه على الوقت الذي قضياه معًا، ثم انصرف، على وعدٍ أن يعود إلى مكتبه ليسترد «الفلاشة».

مشى العرَّاب يُحرك حقيبته في الهواء. وعندما وصل إلى فرع البنك الأهلي، بالقُرب من قسم طب المناطق الحارة، حيث تستقرُّ سيارته، سلَّم عليه أحد العاملين. ردَّ تحيته مبتسمًا، وقبل أن ينقل خطوته، قال له العامل:

- **لو سمحت يا دكتور أحمد.. كنت عايز اسأل لو حضرتك زعلان منِّي في حاجة؟**
- **لا خالص.. ليه بتقول كدا؟**
- **أصل لمَّا قابلت حضرتك من شوية عند باب الجامعة التاني، سلمت عليك وما رديتش عليَّا.. بس غريبة.. حضرتك كنت لابس قميص تاني كاروهات!**

نظر العرَّاب إلى قميصه الزهري، ثم صمت فجأةً، فصورة الآخر التي تجسدت أمامه، عقدت لسانه، وفكرة أن يتحرك في عالَمه، كارثة.

قطع العامل شروده متسائلًا: **مالك يا دكتور أحمد؟**

- **لا لا خير مافيش حاجة.**

أجابه دون أن يلتفِت إليه، ثم ركب سيارته وانصرف.

الفصل السادس

قبل دقائق، تحرك القطار رقم 900 إكسبريس مكيف «إسباني» من محطة طنطا إلى القاهرة. حملت تذكرة الدكتور أحمد خالد توفيق رقم المقعد 22 في العربة الرابعة. لكنه لمَّا وجد عجوزًا تجلس مكانه، طلب منها أن تبقى، وجلس هو على مقعدٍ آخر بجوار الشباك.

يُحب العراب السفر في القطارات، لكنه لا يثِق في مواعيدها، هو لا ينسى يوم انتظر القطار الإسباني المُتجه إلى القاهرة، لساعتَين ونصف متأخرًا عن موعده، وعندما سأل عليه في مكتب المعاونين قيل إنه ما زال في دمنهور.

يومَها أعاد التذكرة ورجع إلى البيت، لكنه اليوم لا يستطيع أن يفعل ذلك، فثمة ما جعل سفره للقاهرة أمرًا حتميًّا، فمنذ عرف من العامل أنه رأى ذلك الآخر عند بوابة الجامعة، وهو لم يذُق طعم النوم، فمن يضمن له أن الآخر لن يُقابل رفعت ويتفق معه على خدعةٍ ما؟

***

من القطار، ترى كل الأشياء تجري عكسك، كأن الأشجار والمباني المتراصَّة على جانبي السكة الحديد، تأبى السفر. وبينما كان القطار منطلقًا إلى الأمام، ارتدت ذاكرة العراب إلى الخلف، حيث رحلته الأولى إلى القاهرة، حاملًا بعض أحلامه الشابة.

كان ذلك في العام ١٩٩٢، بعدما قرأ في الجرائد، عن حاجة المؤسسة العربية الحديثة لكتّاب جدد. فحمل سنين عمره الثلاثين، ومشى متأبطًا خمسين ورقةً من الفلوسكاب. قاصدًا مطابع المؤسسة بالمنطقة الصناعية بالعباسية.

داخل الورقات، كان رفعت إسماعيل، طبيب أمراض الدم، ومعه صديقه القديم د. ريتشارد كامنجز، والعالم اليهودي ماكس لوفارسي، يشهدون عودة دراكولا إلى الحياة. أول الحكايات التي بدأت أحداثها عام 1956، ونواة سلسلة «ما وراء الطبيعة».

وبينما رفعت يعيد دراكولا إلى الحياة، مشى الشاب في أحد أيام فبراير عام 1992، يسأل من يقابله عن مكان المؤسسة العربية الحديثة. لم يكن الجو حينها، مختلفًا عما يعيشه رفعت في «أسطورة مصاص الدماء»، فالرعد والبرق يشقَّان السماء، والأمطار تهدد الأوراق المُخبأة بالبَلل.

بعدما سار طويلًا على قدمَيه، منتعلًا حذاءً تعلق به طين الطريق، وصل إلى مخازن المؤسسة. دخل من بوابتها، فقابلته السكرتارية مبتسمين، أجلسوه ليستريح، وسألوه عن حاجته:

- **غريبة إن حضرتك جاي وقت المطرة كدا!**
- **كنت عايز أقابل الأستاذ حمدي مصطفى.**
- **طيب قول لنا لو ممكن نساعد حضرتك.**
- **أنا جاي بخصوص الإعلان اللي في الجرايد.. معايا رواية تنفع بداية لسلسلة، وكنت حابب أعرض عليه الفكرة.**

استلم موظفو السكرتارية منه الورقات، ووعدوه أنهم سيقدمون روايته للجنة القراءة، وأنها من ستحدد مصيره، وطلبوا منه أن يعود بعد فترة لمعرفة النتيجة.

خرج الشاب من بوابة مطابع المؤسسة العربية الحديثة، تاركًا خلفه مستقبلًا مجهولًا، لكنه كان يثِق أن حمدي مصطفى ناشر كبير، يعطي كل فكرة حقها. فهو يعرف قصته منذ انفصل عن الدار القومية للطباعة، حيث كان يعمل مع والده. ليؤسس في بداية الستينيات المؤسسة العربية الحديثة.

نشر حمدي مصطفى الكتب المدرسية، لمدة 50 عامًا، ثم قرر بعدها أن يتجه للنشر الأدبي، مقدمًا للشباب روايات مصريةً للجيب، يُحاكي بها تجارب غربيةً، حققت نجاحًا في ذلك النوع من الأدب. لم يستهدف حمدي مصطفى التربح، لكنه شعور بالمسؤولية المجتمعية، لذلك انحاز إلى نشر كل ما يحمل قيمةً أخلاقيةً، مثل البطولة وحب الوطن.

أراد الناشر أن يكون كتَّاب السلاسل من الشباب، لذلك أطلقت المؤسسة مسابقةً لاختيار الأنسب، فوقع الاختيار على الكاتب شريف شوقي، ونشرت رواياته تحت عنوان «المكتب رقم 19». كما فاز الدكتور نبيل فاروق بجائزتها عام 1984، عن قصة «أشعة الموت»، ونشرت في العام التالي، كأول عدد من سلسلة «ملف المستقبل»، وحققت بجانب سلسلة «رجل المستحيل» نجاحًا جماهيريًّا كبيرًا.

عاد الشاب إلى بيته في طنطا، بروح أخفَّ مما جاء، بعدما أزاح عن عاتقه عبئًا ثقيلًا، واضعًا إيَّاه على كاهل لجنة القراءة. قضى بعدها أيامه منتظرًا، يُهرول إلى الهاتف، كلما سمع رنينه، فيَخيب ظنُّه في كل مرة. يسأل كلما عاد من العمل: **حد سأل عليا وأنا مش موجود؟** وهو لا يقصد سوى شخصٍ بعينه، يتمنَّى سماع اسمه. لكن دائمًا يأتيه الجواب مُخيبا لآماله. في النهاية لم يجد غير الذهاب مرةً ثانيةً إلى المؤسسة العربية للنشر.

في مخازن المؤسسة، قابله موظفو السكرتارية بنفس الترحاب، لكنهم كانوا أكثر قسوةً في تلك المرة، وإن جاءت قسوتهم دون قصد. فبعدما تصنَّعوا التأسِّي أخبروه أن روايته لن تنشر، لأن تقرير لجنة القراءة جاء في غير صالحه.

يقول العراب:

- *** اللي قرا قال الحبكة مُفككة مافيش قدرة على بناء الشخصيات.. الرواية مُملة جدًّا.. هي رواية بتتكلم عن مصاص الدماء هتبقى مُملة إزاي مش عارف؟! فالحقيقة أُحبِطت جامد.**

مشى الدكتور أحمد خالد توفيق حاملًا كتابه لبضع خطوات، لكنه قبل أن يخرج من الباب، سأل عن الأستاذ أحمد المُقدم، مسؤول التوزيع بالدار. أشار الموظفون إلى مكتبه، فذهب إليه، اعتبره آخِر أملٍ له، لو فشل مسعاه، لربما توقف عن الكتابة للأبد.

وجده رجلًا بشوشًا أحسن استقباله، حكى له أنه قدَّم كتابه للسكرتارية ورفض، فحمل عنه ورقاته الخمسين، ووعده بقراءتهم، وترتيب لقاء له مع صاحب المؤسسة. بعدما قرأ أحمد المُقدم الرواية، شعر أن ثمة شيئًا يجب أن يراه حمدي مصطفى، فاتصل به على الفور، قائلًا له:

- ***في كتاب حلو قوي موجود للدكتور أحمد خالد توفيق، فأنا عايز ابعتهولك تقراه لإن هو ما دخلكش المكتب.**

***

صوت دقدقة عجلات القطار على القضبان، أثار شجونه، جعلَه يذكر دقات قلبه حين ذهب إلى حمدي مصطفى ليُحدد مصيره الأدبي.

في الموعد المُحدد كان متواجدًا بالقُرب من مكتب الناشر الكبير، لمحه من خلف لوح زجاجي، مُمسكًا برزمة ورق أبيض، ينظر إليها من أسفل نظارته، لَيرى إن كانت تصلح للطباعة أم بها عيب. دخل عليه وألقى السلام، فوضع الرجل ما بيده، وسلَّم على الشاب.

- **أهلًا وسهلًا يا دكتور اتفضل.**
- **شكرًا لحضرتك.**

جلس الدكتور أحمد خالد توفيق، بينما ظلَّ حمدي مصطفى واقفًا، يسأله عن مشروب الضيافة. شكره، وبدأ يتحدَّث في ما جاء من أجله. قال إن لدَيه مشروعًا لسلسلة رُعب، بطلها طبيب أمراض متقاعد، وأنه أحضر معه الرواية الأولى بعنوان «أسطورة مصاص الدماء». تعجَّب حمدي مصطفى من اختلاف البطل عن المعتاد،

وكذلك الأجواء البعيدة عن الروايات البوليسية. لكنه طلب منه توضيح فكرته، بعد أن أصغى إليه باهتمام.

قبل تلك الرواية، كتب مئات القصص الواقعية الاشتراكية، تأثرًا بـ ماكسيم جوركي، لكنه سرعان ما توقف، بحثًا عن القراء. استشعر العراب فجوةً بين الشباب والكتاب، وأنهم لا يقرءون لِغير نبيل فاروق، ومن ثم، وجد في الرعب سبيلًا غير مطروق، فقرَّر المُضي فيه قدمًا، بعدما خلق منطقةً وسطى، متمثلةً في كتابة قصص الرعب بأسلوب أدبي.

*** في الفترة اللي بدأت فيها الكتابة كان اللي يتشاف وهو شايل كتاب يتبص له باستغراب وياخد تريقة للصبح، علشان كدا كنت عايز استخدم عنصر جاذب من خلال النوعية دي من الكتابة.. وفي نفس الوقت تُمتِّعني أنا أيضًا ككتابة.**

انتهى الشاب من عرض فكرة مشروعه، فقال له حمدي مصطفى:

- **عمومًا يا دكتور.. أنا هعرض روايتك على لجنة تانية.. وخلينا برضو نشوف.**

***

نظر العراب إلى الأرض المُنزرعة على جانب السكة الحديد، وبعد دقائق قضاها، واضعًا يده على عينَيه، متفاديًا أشعة الشمس، أنزل شباكًا زجاجيًّا سميكًا، فحجب الضوء عنه، وخفت صوت الهواء السريع، واخترق أُذنه صوت بائع العسلية:

- **بجنيه يا أستاذ.. عسلية بجنيه يا أستاذ.**

ابتسم في صمت، فأكمل البائع طريقه إلى العربة التالية، لكن قبل أن يدخلها، قابله بائع آخر معترضًا على وجودهما في قطار واحد. تعالت الأصوات، وكادا أن يتعاركا، لولا أن وقف الناس بينهما.

تأمَّل العرَّاب موقف البائعين، وكيف أن بعض الكتاب يتعاملون بمنطق القطار، الذي لا يسع أكثر من بائعٍ لنفس السلعة. غير أن الدكتور نبيل فاروق لم يكن من هؤلاء، فعندما قادته الصدفة ليُقرر مصير الكاتب الشاب، أشاد بروايته، وأفسح له مكانًا بجانبه، ليُنافسه ويُقاسمه شُهرته.

كان الدكتور نبيل فاروق رئيس لجنة القراءات بالمؤسسة الحديثة، لكنه لم يكتب تقرير الرفض، فقبل أيامٍ من مجيء الدكتور أحمد خالد توفيق بروايته، كان قد سافر لقضاء إجازة المَصيف، لذلك شكَّل حمدي مصطفى لجنةً أخرى، هي التي كتبت تقريرها في المرة الأولى.

اعتاد نبيل فاروق قراءة الأعمال التي ترفض في غيابه، لذلك بعدما رجع من إجازته، أعطاه أحد الموظفين رواية «أسطورة مصاص الدماء» ليقرأها، وحينما سأله عن سبب رفضها، قال:

- **لأن عدد صفحاتها قليل!**

فعلق الدكتور نبيل وهو يحمِل القصة في يده، قائلًا: **دا مش سبب للرفض.. مُمكن نكلِّمه يعمل قصة تانية في نفس العدد.**

قرأ صاحب «رجل المُستحيل» الرواية. وجد فيها قصةً مثيرةً، تُنبئ بكاتبٍ يحمل قدرًا من الموهبة. كتب بعدها تقريرًا تفصيليًّا، أشاد

فيه بالرواية، وبكاتبها الواعد، بل وأضاف على الهامش: * **دا لو ما كُنَّاش إحنا ناخده.. غيرنا هياخده ينافسنا بيه.**

***

لم يخشَ الدكتور نبيل فاروق أن يُنافسه العراب، بل عندما حذره حمدي مصطفى من ذلك، قال له: **وإيه يعني؟ دي أحسن حاجة في الدنيا المنافسة.** لذلك ظل العرَّاب حافظًا جميلَه، يقول كلما سئل عن البدايات:

***- لقيت الدكتور نبيل فاروق كاتب تقرير تفصيلي في مُنتهى الجمال عن الرواية.. فعرفت إن الراجل دا مش عايز يقفل، مش عايز ياخد السلم وراه.. عايز السلم يفضل موجود.**

نُشرت «أسطورة مصَّاص الدماء» بعدما أُضيفت لها قصة أخرى بعنوان «الرجل المستذئب»، فحقَّقت نجاحًا كبيرًا، وكانت بدايةً لسلسلة «ما وراء الطبيعة». وتوالت بعدها الأساطير، فجاءت «النداهة» و«وحش البحيرة» و«آكل البشر» وغيرهم.. حتى اكتملت عند حبَّتها الثمانين، «أسطورة الأساطير».

عبر تلك السلسلة وغيرها من الإصدارات، تحقَّقت نبوءة الدكتور نبيل فاروق، وصار العراب هو المُنافس الوحيد له. فقد تلقَّى مع الكُتيب السابع تقريبًا، أول خطابٍ من القراء، لتبدأ علاقته بهم، لكن على قدْر ما حملت الخطابات من محبة، حمل بعضها نقدًا جارحًا، ومقارنةً دائمةً مع الدكتور نبيل فاروق.

شكَّل الدكتور أحمد خالد توفيق والدكتور نبيل فاروق، عبر ثلاثة عقود، ثنائيةً جماهيريةً، لم يَسبقهما إليها كاتب عربي آخر. فلم يكن في حسبانه وقت حمل أوراقه إلى المؤسسة العربية، أن يصير نبراسًا للشباب، بل كل ما تمنَّاه، أن يُقدم قصةً مسليةً، لا يندم من يقرؤها على ما ضاع من وقته. كذلك لم يُصدق أسطورة «العراب» التي تشكَّلت في أذهان مُحبيه. كان يرفضها دائمًا، ويرى أن من يعتقد في نفسه ذلك، لن يصل إلى شيء:

- **أنا لمَّا بسمع كلمة العرَّاب دي بتخض.**

***

وُلد نبيل فاروق وأحمد خالد توفيق بطنطا، عاشا طفولتهما متجاورَين، دون أن يعلَم أيهما عن الآخر شيئًا. حتى عندما جمعتهما مجلة «تان تان» ونشر فيها الطالب الجامعي نبيل فاروق رمضان رسمةً له، في نفس العدد الذي نشر فيه طالب الإعدادية أحمد خالد توفيق، بعض أشعاره، لم يلحظ أحدهما الآخر. كذلك عندما الْتحق العراب بكلية طب جامعة طنطا، كان نبيل فاروق، تخرج منها.

تعارفا في المؤسسة الحديثة، وجمعتهما صداقة حميمية، وإن اختلفا في الرؤية الكتابية، فلم يُحب أحدهما الرعب، كما لم يقرأ الآخر قصص الجاسوسية. لكن ذلك لم يجعل العرَّاب يُنكر أن نبيل فاروق كاتب أصيل، لم تحُم حوله شبهة الاقتباس، كما تربَّت على أعماله أجيال عدة من قارئي العربية. لذلك يراه شديد الأهمية إلى حدٍّ لا يُوصَف. ودائمًا ما يقول عنه:

- (دوستويفسكي) نفسه ما أثَّرش في العدد دا كله من القراء.. خاصة في سِن الشباب.

اختلفا كثيرًا، كانت اختلافاتٍ نبيلةً، سواء في وجهات النظر السياسية أو الأدبية. لكن في فترةٍ ما، وقع بينهما خلاف كبير، وصل إلى صفحات الجرائد، وشهد بعض كواليسه «منتدى روايات التفاعلية».

كانت المشكلة بين الدكتور نبيل فاروق والناشر حمدي مصطفى، لكن انحياز العرَّاب إلى صاحب المؤسسة، جعله طرفًا فيها. كان الخلاف بسبب الحقوق الإلكترونية للأعمال الأدبية، فقد رأى الدكتور نبيل أنه مجال جديد، يُعطي القانون فيه للمؤلِّف الحق في التعاقُد على أعماله، دون أن يُعطي للناشر هذا الحق.

كانت أكبر المشكلات التي تعرَّضت لها المؤسسة الحديثة آنذاك، وكادت أن تعصف بعلاقة الثلاثة. حتى إنها شهدت ظهورًا تلفزيونيًّا ومناظراتٍ صحفيةً، بل ووصلت للقضاء ليفصل بينهم.

خلال تلك الفترة، انفصل الدكتور نبيل فاروق عن المؤسسة الحديثة، وأسَّس دار نشر، أطلق عليها «مبدعون للنشر»، استكتب فيها الشباب، كان بينهم محمد فتحي ومحمد سامي وأحمد العايدي. صدر عن تلك الدار عدة سلاسل، الأولى اسمها «مجانين» وهي كتابات ساخرة، و«آيس كريم» التي كانت أشبهَ بمجلة. أما الثالثة فاسمُها «العقل»، وهي مختصَّة بتبسيط العلوم. إضافةً إلى كتابات الدكتور نبيل، غير المنشورة.

تواجَد العراب في تلك الفترة داخل المؤسسة، ولم يستشعِر أن ثمة مشكلةً مع حمدي مصطفى، بل كان متعاطفًا معه، ويرى أنه صاحب فضل عليهما. حينها، وقعت جفوة كبيرة بينَه وبين الدكتور نبيل، تخاصما على إثرها لسنوات، لكنهما حافظا على الاحترام بينهما، والتزما الصمت، فلم ينَل أحدهما من الآخر. وإن كان الدكتور نبيل قال للعرَّاب ذات مرة على منتدى «روايات»: **ما تنساش إن أنا اللي دخلتك المؤسسة.**

فردَّ عليه العرَّاب: **طبعًا مش ناسي، وعمري ما أنكرت دا.**

كان تأدُّبهما في الخصام، هو سبب انتهاء الجفاء بينهما ببساطةٍ شديدة، حيث جمعت بينهما ندوة في معرض القاهرة للكتاب، فلم يعترض أحدهما على وجود الآخر، بل وعندما تقابلا، تبادلا الأحضان، وجلسا على المنصة يتبادلان النِّكات، كأن لم يكن شيءٌ من الأساس.

وظلَّ العرَّاب يذكر الأمر على اعتباره:

- * **شدة طفولية كدا حصلت من كام سنة.. خناقة إخوات يعني.**

***

نزل العراب في محطة مصر، كان الرصيف مُزدحمًا، والهواء به من العوادم ما جعلَه يفكر في الرجوع بنفس القطار، لكن ضرورة مقابلة رفعت إسماعيل، جعلته يُكمل السير.

عند كشك الجرائد القريب من باب الخروج، تذكر مجيئه لمرات، بصحبة أصدقائه الكتَّاب الشباب: محمد فتحي ومحمد علاء. اللذين كانا يصطحبانه إلى محطة القطار، بعد انقضاء سهرتهم في شقة الكاتب تامر إبراهيم، بالمطرية.

اعتاد العرَّاب أن يلقاهم كلما جاء إلى القاهرة. يتبادلون الحديث، حول قراءاته ومعرفته بالسينما، ثم يَطلبون وجبتَهم المُعتادة، من محلٍّ أسفل البناية، الفراخ المشوية والكفتة، يأكلونها وهم يتندَّرون بشأن مصدرها، ثم ينصرفون.

هو يعرف أن رفعت قد لا يشغله تفصيلةٌ كتلك، لكنها الذاكرة التي تَسُوقنا أحيانًا.

***

وصل العراب إلى محطة مترو الشهداء. نزل السُّلم متجهًا إلى شباك التذاكر. اشترى واحدةً، ووقف يُقلبها بين إصبعَيه، باحثًا عن اتجاه الجيزة. على الرصيف، كان العشرات ينتظرون القطار، الذي خرج بعد دقائق من نفقه المُظلم، حاملًا آلاف البشر، باحِثين فيه عن موضع قدَم.

دخل العربة، رأى البعض مُمسِكين بمقابض بلاستيكية، تدلَّت من أشرطة معلقة في عِمدان حديدية، مُثبتة في السقف. بينما جلس الآخرون مُتقابلين. عرفَهُ شاب صغير بمجرد دخوله، قام من مكانه سريعًا وأجلسه.

- **دكتور أحمد.. اتفضل حضرتك ارتاح.**

- **شكرًا يا حبيبي.**

***

جلس العراب على المقعد، متفرسًا ملامح الناس لدقائق، ثم أبحر ثانية في ذكرياته. تذكر يوم نشرت المؤسسة روايته الأولى. في الصباح، وجدها القراء عند بائعي الكتب، اشتروها لثقتهم في المؤسسة، أو بدافع الفضول. بينهم الطفل محمد هشام عبية، الذي اعتاد قراءة «روايات مصرية للجيب». لم يكن يعرف مؤلف «أسطورة مصاص الدماء»، لكنه لمَّا وجدَها؛ فضَّل ألا يعود بيدٍ فارغة.

في البداية، لم يُحب «عبية» قصص العراب. وجدها غريبةً، كُتبت بأسلوبٍ يحتاج في قراءته بعض التأني، لا يُناسبه اللهاث خلف الأحداث. لم ترُقْه مصاحَبة مصاصي الدماء، ولا الطبيب صاحب العوينات، هو ليس قويًّا كسائر الأبطال. لكنه على أي حال، قرَّر مُصاحبته في رحلة أخرى. قرأ له أسطورة «النداهة»، فلم يجد أرضًا تجمعهما. حتى قرأ أحد أعدادها؛ فأحسَّ أن ثمة شيئًا تسرَّب إليه، وشيئًا فشيئًا، صار رفعت صديقه الأقرب.

في العدد الخامس تقريبًا، أرسل «عبية» خطابًا للعراب، حكى له أنه عشق السلسلة، بعدما كان لا يطيق قراءتها. نشره الدكتور أحمد خالد توفيق في العدد 23. كان سعيدًا بتطور علاقتهما، وربما جسَّد ذلك التحول علاقته بأغلب القراء. هو لم يجد الطريق مُيسرًا إلى الشباب، بل وضع حجرًا تلو الآخر، حتى مهَّد الطريق. فخرج منه وإليه أجيال عدة، عبر عقودٍ أفناها في الكتابة.

بعد سلسلة «ما وراء الطبيعة»، خرجت «فانتازيا» عام 1995. ثم أصدر «سافاري» في عام 1996. ولم يكتفِ بما حققته السلاسل من نجاحات، بل كتب الرواية الطويلة. والتي بدأها بـ «يوتوبيا» عام 2008، فحققت نجاحًا كبيرًا، وتُرجمت إلى الإنجليزية والفرنسية والألمانية والفنلندية. ثم نشر «السنجة» في عام 2012، و«مثل إيكاروس» عام 2015. ورواية «في ممر الفئران» عام 2016، وأخيرًا روايته «شآبيب» عام 2018.

رغم العلاقة التي نشأت بين العراب والشباب، إلا أنه بقي لسنوات، مجهولًا بالنسبة للكبار. غائبًا عن الحضور الإعلامي. حتى انتصر له محمد هشام عبية عام 1997، وقت كان عمره سبعة عشر عامًا. كان مُقيمًا في شربين بمحافظة الدقهلية، لكنه حرص على مراسلة المجلات والصحف. ومن ثم، أرسل ميلًا لكاتبه المُفضل، سأله أن يجري معه حوارًا صحفيًّا. ولما وافق، سافر الشاب إليه من شربين إلى طنطا.

تقابَلا في منطقة «المرشحة». جلسا يتحدثان في كل شيء، إلا الحوار، ثم ركب معه سيارته، ماركة «هيونداي إكسل» ليُعيده إلى محطة القطار. في الطريق، أجرى الشاب حواره الصحفي، الذي أعدَّه للنشر فور عودته إلى بيته، وأرسله سريعًا إلى جريدة حديثة الإصدار. بعدما وضع له عنوانًا يقول: «رواياتي أعمق من أجاثا كريستي وأكثر تأثيرًا من تشيكوف».

بعد أسبوعين، فوجئ «عبية» وقد نشر في بريد قراء الجريدة، أن شخصًا أرسل حوارًا مع كاتبٍ مجهول، يَدَّعِي أنه أفضل من أجاثا كريستي، لذلك نصحه مُحرر الجريدة أن يتواضع قليلًا.

كتب «عبية» إلى الجريدة خطابًا شديد اللهجة، استنكر ادِّعاءهم بأنهم صحيفة شبابية، في حين لا يعرفون أهم كاتبٍ للشباب. قال إنهم مُغيبون، ومنفصلون عن الواقع، لكن الحقيقة، أن العراب وبعد 7 سنوات من نشر كتابه الأول، لم يكن نال ما يستحقُّ إعلاميًّا.

يقول محمد هشام عبية:

- **بعته بعدها لموقع اسمه «ديوان العرب». كان موقع عربي مهتم بالثقافة. نزل وناس كتير قرته. والدكتور أحمد خالد توفيق بعت لي رسالة قال لي يخرب بيت دا عنوان.. إنت كدا هتكرَّه الناس فيَّا. قلت له ما يهمكش. وأزعم إن دا أول حوار صحفي مع أحمد خالد توفيق.**

***

ورغم أنه يُعد حالة لم تعهدها الثقافة العربية، سواء لغزارة إنتاجه أو لجماهيريته، إلا أن العراب لم يأخذ حقَّه النقدي أيضًا. فقد ظل الوسط الثقافي يعتبره كاتبًا لنوعٍ أدبي يصلح للتسلية فقط، هو «البوب آرت». لم تفرد له الدراسات النقدية، كما لم يكرَّم بشكلٍ لائق، سواء على المستوى الرسمي أو غير ذلك.

لم يتقدَّم إلى أي جائزة في حياته، مُعتبرًا حُب الشباب له، جائزته وهدفه الحقيقي. قال إنه قبل الصفقة بمزاياها وخسائرها.. «المزايا هى الرواج، والخسائر هي ألَّا ينظر لك النقاد بجدية أبدًا». ومن ثم، لم ينشغل برأيهم فيما يكتب. بل ورآهم راغبين في توقُّف الكاتب عن الكتابة.

يقول العراب:

- **أومن بمقولة «تشيكوف» بأن الناقد ما هو إلا ذبابة تحوم حول الحصان.. الحصان عضلاته قوية ولدَيه قدرة على المثابرة في الجري، ولكن الذبابة «تزن» بشكلٍ متواصل وتُشتت الحصان.**

***

أحمد خالد توفيق الجالس الآن في عربة مترو الأنفاق، كان عليه أن يسافر إلى القاهرة عام 1993، أي بعد نشر أولى قصصه، سواء تقربًا من وسائل الإعلام، أو لزيادة فُرص نجاحاته، لكنه ضحَّى بذلك، في سبيل أن يحيا بأعصابٍ هادئة.

اختار البقاء في طنطا. فكان ذلك أحد أسباب إنجازه لمشروعه الأدبي. فالمدينة الصغيرة أكسبته مزيدًا من الوقت والتفرُّغ. كما أبقته بعيدًا عن الصراعات والضوضاء.

لم يكن هو الوحيد من أبناء طنطا، الذي لم يستطع مُغادرتها، فقبل سنوات، عندما حقَّق الإمام النقشبندي جماهيريته الكبيرة، استيقظ من نومِه ذات مرة، وهو يحكي أن الشيخ أحمد البدوي رحمه الله، قال له في المنام: «**ما تسيبنيش يا سيد وما تتركش هذه الرحاب**»، لذلك لم ينتقل إلى القاهرة.

حتى من تركوا المدينة، ثمة نداء خفي جعلهم يرجعون إليها. فعندما اعتزل الحياة رسام الكاريكاتير الشهير «أحمد إبراهيم حجازي»، وانزوى في شقته الكائنة بضاحية المنيل، لم يجد مَهربا من العاصمة وضجيجها، غير العودة ثانيةً إلى عالَمِه الصغير في طنطا.

***

- **حضرتك نازل فين يا دكتور؟**
- **محطة الدقي.**

تعمَّد الشاب أن يخلق حوارًا معه، فما إن أجاب على سؤاله حتى أتبعه بآخر:

- **ليه حضرتك مش عايش في القاهرة.. على الأقل هنشوفك كتير؟**

- أنا موجود في طنطا بعنادٍ شديد الحقيقة، في شقّتين في القاهرة لكن أنا مش مُتحمِّل القاهرة بأي شكل، فأنا مُصر إن حياتي تبقى في طنطا، وأعتقد إن قبري هيبقى في طنطا أكيد.

قال العراب للشاب، إن القاهرة مدينة كبيرة، في حين أن طنطا لا تُكلفه أكثر من ربع ساعة ليصل إلى ما يُريد. والعاصمة إن قرَّبته من الفُرص، ستزيد ضغطه العصبي، وتُقلل من إنتاجه.

حكى الشاب، أنه جاء من أحد الأقاليم إلى القاهرة، ساعيًا أن يُصبح كاتبًا مشهورًا. أثنى العراب على تصرُّفه، مؤكدًا ضرورة مجيء أدباء الأقاليم إلى العاصمة، هذا إن كانوا يسعَون إلى النجاح. قال إنه الاستثناء الذي أكد القاعدة، وأنه فقط كان محظوظًا، حين وجد وهو في طنطا، ثغرةً مرَّ منها إلى الشهرة، متسائلًا:

- تخيل لو أمل دنقل فضل في الصعيد وما جاش القاهرة، هل كان في حدِّ هيعرفه؟

***

تجرع العراب مرارة التعالي الذي يُمارَس على أبناء الأقاليم، تحديدًا يوم أرسل لصديقه د. رائف وصفي، قصةً ليعرضها على رئيس تحرير مجلة صباح الخير. وطلب رئيس التحرير، من صديقه أن يقرأها في ثلاث دقائق، «وعندما بدأ القراءة أمسك الرجل هاتفه وبدأ في محادثة آخَر، وكلَّما هم وصفي أن يتوقف حتى ينتهي رئيس التحرير من مكالمته، طالبه بالاستمرار، ثم بعد أن انتهى قال له الرجل «مش حلو».

لكن العرَّاب انتصر على هزائمه، فقد أصبح من أشهر كتاب الوطن العربي، دون أن يترك مدينته، بل وأرغم من يُريده على أن يذهب إليها. هو يقول:

- *** في أستاذ أمريكي في هارفارد جالي في طنطا، في صحفية سويسرية، في صحفية إيطالية.. الحمد لله قابلت ناس كتير جدًّا في طنطا.. جولي مش أنا اللي روحت لهم.**

أيضًا استكتبه أشهر المجلات والصحف. لكن جُرحًا واحدًا، أصابه جراء بُعده عن القاهرة، لم يندمل. فقد عطلت حلمه في رؤية قصصه على شاشة السينما، معشوقته التي لم ينلها، وحلمه الذي تمنَّاه.

تعاقد العرَّاب كثيرًا على تحويل بعض قصصه إلى أعمالٍ سينمائية، حتى إنه باع قصةً واحدةً لأكثر من مُنتِج سينمائي، لكن المحاولات كانت تفشل دائمًا. كما جرى حديثًا بشأن تحويل «ما وراء الطبيعة» إلى عمل درامي، رشح فيه الفنان عبد العزيز مخيون، لتقديم شخصية «رفعت إسماعيل ورغم تسجيلهم لحلقة كـ « Test Pilot»، لقصة «بعد منتصف الليل»، إلا أن المحاولة باءت بالفشل:

- **لمَّا سمعت صوت عبد العزيز مخيون، حسيت إني سامع صوت رفعت إسماعيل بالظبط.**

***

مكتبة
t.me/soramnqraa

شكلت سلسلة «ما وراء الطبيعة» خيال المخرج عمرو سلامة، وكثيرًا ما قرأها في طفولته، وصاحبَته أشباحها إلى سرير نومه، لذلك كان ممن سعوا إلى تحويلها إلى عمل درامي، لكنه لم يجد وقتها من يتحمّس لإنتاج مسلسل بهذا الحجم.

في عام ٢٠٠٨ قدم فيلمه الأول، بعنوان «زي النهارده» من تأليفه وإخراجه.

دارت أحداثه حول فتاة تُوفي خطيبها في حادث سير، وعندما أحبت شخصًا آخر، لاحظت وجود تشابُهٍ في الأحداث التي جرت مع خطيبها السابق. ولما حاولت أن تحمي حبيبها من أن يلقى نفس المصير، واحتاجت إلى من يساعدها، اقترحت إحدى صديقاتها، أن تذهب إلى دكتور جامعي اسمه «رفعت إسماعيل»، له خبرة في التعامل مع الظواهر الخارقة.

كان ظهور رفعت في فيلم «زي النهارده» ظهورًا ثانويًّا، في مشهد وحيد، قام به الفنان هناء عبد الفتاح، حاملًا ملفًّا كُتب عليه «التاريخ بيعيد نفسه»، فسَّر من خلاله ما يحدث، ناصحًا الفتاة أن تنظر إلى الأمس لتصل إلى غدها. لم يأت اسم بطل «ما وراء الطبيعة» مصادفةً، فقد استأذن عمر سلامة من العراب. بل وطلب منه أن يؤدي هو الدور، لكنه رفض تجربة التمثيل، مكتفيًا بظهور صاحبه على الشاشة، بعدما قطع المخرج الشاب وعدًا على نفسه:

- ***طول ما أنا عايش هحاول علشان يخرج مسلسل «ما وراء الطبيعة» بأحسن شكل وأحسن جودة.. وينافس كمان الحاجات العالمية إن شاء الله.**

***

واجه العراب مشاكل في إنتاج أعماله دراميًّا، وصعوبةً في اختراق شِلل مغلقة على أفرادها، لذلك عاش بغصّة في حلقه، تجلَّت مرارتها في رسالته إلى الكاتب أحمد مراد، ضمن حديثهما عبر بريده الإلكتروني.

شكا في رسالته حظَّه العثر، وحزنه، وظلمَه الشديد، فكانت صرخةً مكتومةً، لم تتعدَّ كونها فضفضةً.

- **أنا بفضفض بس معاك يا أحمد.. إنت عارف أنا بارتاح لك أد إيه.. الحقيقة أنا مندهش من اللعنة الإغريقية التي تجعل تقديمي لعمل درامي أو مسلسل مستحيلًا. وكل مرة؛ أصل الحاجات دي بتاخد وقت. أنا أكثر واحد عارف إن المواضيع دي بتاخد وقت! بعمل مشاريع من 15 سنة. الحقيقة أنا مندهش كيف يتم تقديم أي شيء للسينما أصلًا ما دام الأمر بهذه الصعوبة؟**

عشق السينما منذ كان عمره 7 سنوات، شاهد مئات الأفلام، وقرأ عنها أفضل مما قرأه نقَّاد كبار. في قاعات السينما، كان قلبه يتواثب طربًا؛ لرؤية ذرّات التيار المتطايرة في شعاع النور، ومن ثم، تحسّر في رسالته، على اقتراب العمر من نهايته، دون تجربة سينمائية واحدة:

- **لكن فعلًا أشعر إني سأموت قبل أن أرى أي فكرة لي على الشاشة.**

لم يطلب العراب شيئًا، فقط كان يفكر بصوتٍ عال، يبحث عن لعنة أصابته، أو نحس. فهو لا يجد تفسيرًا لما يحدث. لكنه وقبل أن يسأل عن عيبٍ في كتاباته، تنبَّأ أن صنَّاع السينما، سيُقدمون كل شيء بعد موته، وأنهم سيجدون فيما كتب ما يكفي 500 فيلم.

***

ربما تحكمت لعنة في علاقته بالسينما، فرغم كونه ناقدًا ومؤرخًا سينمائيًّا يملك معرفةً موسوعيةً، فقد تعطلت فرصة ظهور تلك المعرفة تلفزيونيًّا في عام ٢٠٠٢، وقت كان يعمل الكاتب محمد فتحي في مكتب تابع لقناة تلفزيونية شهيرة، وطلب مدير البرامج، ممن لديه فكرة أن يُقدمها.

حينها، أراد الشاب أن يُعطي فرصة الظهور لأستاذيه. ففكر في برنامج يُقدمه الدكتور نبيل فاروق، باسم «حرب الجواسيس»، وطلب من الدكتور أحمد خالد توفيق أن يُقدم فكرةً أخرى.

كانت المفاجأة أن قدم العرّاب فكرةً عن الأخطاء التي ظهرت في الأفلام الشهيرة، رصد خلالها أخطاءً عديدةً، سواء راكورات أو أخطاء فنية أو تاريخية، كان أشهرها ظهور ساعة يد في فيلم «الناصر صلاح الدين»، كما رصد أخطاءً في أفلام عالمية، يستحيل تخيُّل أن بها أخطاءً. جذبت فكرته الأنظار، لكن لأسبابٍ مجهولة، لم تظهر التجربة للنور.

في النهاية، رأى الدكتور أحمد خالد توفيق السينما، كأنها مغارة وقد أُغلقت في وجهه. لم يشفع له جنونه بها، وشغفه في أن تتحرك شخوصه على شاشتها، لذلك تنبّأ أنها لن تفتح إلا بموته.

***

كان العراب جالسًا في مترو الأنفاق، غير مبالٍ لما حوله من ضجيج، وإن كان يخنقه الزحام، فمجرد التفكير في السينما قادر على انتشاله من عالَمه إلى عالمٍ أكثر رحابةً. قطع شروده فجأةً صوت الشاب الواقف على بُعد خطوةٍ منه:

- **الدقي يا دكتور!**

انتفض واقفًا، نظر بطرف عينه من الشباك، حيث تظهر على الرصيف لافتة كتب عليها «الدقي». زاحم الأكتاف الملتحمة، حتى وصل إلى باب النزول. أمسك شاب بالباب، وألقى العراب بنفسه إلى الرصيف، ترك الشاب الباب فجأةً، فانغلق محدثًا صوتًا عاليًا.

الفصل السابع

خرج من غرفته إلى الصالة حاملًا قطته الصمَّاء. جلس إلى المائدة، وأخذ يمسح بيده على شعرها الناعم. كان نسخةً طيبةً من مارلون براندو في فيلم العراب، وإن كان لا يُحب اللقب، إلا أنه يعشق القطط، ويرى أن لها قوةً أسماها «قوة الضعف».

كثيرًا ما وجد إحداها أسفل عجلة سيارة، فحملها إلى بيته، بعد أن ابتاع لها اللبن، وبقيت زوجته تُطعمها وتتخلّص من فضلاتها، حتى أصبحت قادرةً على الخروج وحدها من المنزل. لكن تلك القطة تحديدًا، كانت الأقرب إليه، فبعد أيام من دخولها البيت، لاحظ أنها لا تلتفت إذا ناداها، ولا تتحرك إن سقَط شيء بالقرب منها. تأكد من صممها، فاختصّها برعاية أكبر.

هي الوحيدة القادرة على أن تُوقظه من نومه، تخمِش قدمه، أو تتحرك فوق رأسه، فيفتح عينَيه مبتسمًا.

***

بعد عودته من القاهرة، ظل نائمًا لساعات، ظن الجميع أنه يستريح من عناء السفر، فقرروا ألا يُوقظه أحد. لم يعرف أي منهم أن وراء هذا النوم الطويل حزنًا ثقيلًا.

لما نزل العراب إلى القاهرة، ووجد نفسه أمام مسكن رفعت إسماعيل، في 4 أ شارع الترعة بالدقي، وقف على عتبات عمارته، ذات المدخل الرخامي الأسود، ناظرًا إلى طوابقها الخمسة. فكر في وعده للآخر، بألَّا يذهب أي منهم إلى رفعت بمُفرده. تردَّد كثيرًا وهو يفكر، ماذا لو خان الآخر العهد، أيظل هو وفيًّا له؟ وماذا لو لم يخنه؟ سيصير وقتها الخائن. قرر في نهاية الأمر ألا يصعد وأن يعود إلى طنطا مرةً أخرى.

أدار ظهره للبناية، لكن قبل أن ينقل خطوته الأولى، جاءه صوت من الخلف:

- دكتور أحمد.. إزي حضرتك؟ إنت كنت جاي لـ رفعت ولا إيه؟
- آه.. بس نسيت حاجة فراجع أجيبها.
- هو مش موجود في شقته.. سافر من يوم التلات اللي فات، وحتى ماقالش رايح فين.
- يعرف العراب ذلك الشخص، هو النحات القاهري عزت شريف، جار رفعت، المميز بالبُقع الداكنة على جلده. وقد وجد في كلامه ما شجعه على العودة إلى طنطا، لكنه أيضًا وجد فيه ما يُثير الريبة. فقبل أن يشكره ويرحل؛ قال عزت:
- لكن غريبة يا دكتور إنك مش عارف.. مع إني شوفتك عنده قبلها بيوم.
- أنا!

قالها العراب مندهشًا، ثم لم يسمع كلمةً بعدها. فقد وقف عاجزًا أمام طوفان الاحتمالات الذي عصف به.

***

وضعه عزت أمام احتمال لم يكن في حسبانه. فكر أن مجيء الآخر وفكرة استبدال العوالم، لم يكن سوى حيلة من رفعت، أراد بها أن يُذيقه متاهة الألغاز، ومشقة البحث عن الحل.

رغم صداقتهما، لم يكن العرّاب ورفعت إسماعيل على وفاق. عندما كان يكتب الأخير رسائله إلى القراء، كان دائم الهجوم على كاتبه، واصفًا إيَّاه بالسمج الثقيل الظل، رغم أن الدكتور أحمد أكد كثيرًا؛ أنه ابنه البكري، وأحب الشخصيات إليه.

في الطريق إلى طنطا، أعاد تفاصيل لقائه بالآخر لمرات، في كل مرة، كانت تتجلى له صورة رفعت، يراه يحيك له المكيدة. يبدأها باتصالٍ تليفوني في منتصف الليل، ويُنهيها بموعد عند الاستاد.

فكر الدكتور أحمد في مَن اتفق معه على المناظرة. هل كان رفعت، أم أنه استعان بالآخر؟ هو يعرف خبرة صاحبه في عوالم ما وراء الطبيعة، لذلك ظن أنه من تواصل مع نُسخته. أقنعه بالحيلة، وبتبديل العوالم مع النسخة الأرضية. أيضًا اعتقد أنهما رتَّبا فكرة المناظرة، في حين ادَّعى الآخر أنها وليدة لقائهما.

***

وضع العرَّاب قطته على الأرض، هرولت بعيدًا. خرج ابنه «محمد»، من غرفته، سلَّم عليه، وجلس أمام التلفزيون، ليُشاهد مطاردة نمرٍ إفريقي لغزالة بيضاء. وبينما كانت زوجته وابنته «مريم» يُحضران العشاء. استدعت ذاكرته أجواء يوم 2 أبريل 2011.

التفت إلى ابنه، وسأله إن كان يذكر تفاصيل ذلك اليوم. فتبدَّلت ملامحه:

- دا كان يوم صعب جدًّا علينا.. كانت أعصابنا مشدودة، وما كنَّاش فاهمين إيه اللي بيحصل.. بس انت إيه اللي فكرك باليوم دا يا بابا؟

أخبره أنه يريد استدعاء ما حفظته الذاكرة، حتى لا ينسى أيًّا من تفاصيله، لأنه قرر أن يكتب عنه مقالًا.

***

كان العراب عائدًا إلى المنزل، بعد يومٍ جامعي مُرهق. دخل من باب الشقة هامسًا: ألا يا عُتبة الساعة.. أموت الساعة الساعة.

خرجت زوجته الدكتورة منال من المطبخ متسائلةً: إيه دا؟

- دا بيت شعر لأبي العتاهية.. ما كانش بيحبه علشان شايفه ضعيف.

أجابها وهو يُكمل السير إلى غرفته، غيَّر ملابسه ورجع إلى الصالة. وجد أولاده ينتظرونه حول الطعام، بينما الدكتورة منال نزلت إلى الطابق الأسفل، لتطمئن على والدتها. جلس صامتًا على غير عادته، فقد شعر فجأةً، باضطراب ضربات قلبه، وشعر برعشة، كما لو كان

مسٌّ كهربائي أصاب هذا العضو الضعيف. حاول أن يطمئن نفسه، لكن الظلام الذي ابتعله فجأةً، كان ردًّا لم يتوقعه.

- **فجأة أغمى عليه، فإحنا مافهمناش في إيه، اتخضينا جدًّا، كنت أنا وأختي بس، وكانت والدتي تحت عند جدتي ساعتها، والدتي طلعت في نفس اللحظة دي عملت له سي بي أر اللي هو تنفُّس صناعي، ففاق.**

هرول محمد إلى التليفون، حاول أن يتصل بالإسعاف، لم يُجبه أحد. فاتصل بصديق والده، الدكتور رائف وصفي:

- دكتور رائف.. والِدي أُغمي عليه ومش عارف أعمل إيه.

كان الظلام هو المُسيطر على عالمه الداخلي، فتح عينه بصعوبة، وجد أسرته يبكون حوله، يتوسَّلون له ألا يرحل. لم يفهم ما يدور.. متى جاء صديقه رائف؟ لا يعرف، لكن مجيئه لا يكون إلا لأمرٍ خطير.

- **فهمنا بعد كدا إن قلبه وقف تمامًا ورجع تاني للحياة.. قُلنا له لازم تنزل تكشف، قال لنا طيب هنام شوية.. اتحايلنا عليه كتير أنا وماما وأختي، لكنه كان مصمم وقال لنا: أرجوكم سيبوني أنام أنتم كدا هتموتوني.**

انصاعوا لرغبته. أسندوه إلى غرفته، وضعوه على سريره، نصف واع، فأغمض عينَيه وغاب عن العالم، بينما رقد أبناؤه بجانبه، بأعيُنٍ يقظة، يُحرسانه ويمنعانه أن ينزلق إلى العالم الآخر.

***

استيقظ من نومه بعد ساعة ونصف، غيَّر ملابسه واستحم، وفهِم من أسرته ما جرى. في تلك الأثناء عاد صديقه الدكتور رائف بسيارته، ليُوصله إلى الطبيب.

- كنت في تانية ثانوي، وكان عندي درس مهم قالوا لي إنت روح الدرس وإحنا رايحين للدكتور وهنطمِّنك من هناك.. ما تقلقش.

ركب الدكتور أحمد وزوجته سيارة صديقه، مُتجهين إلى عيادة الدكتور أيمن السعيد، أستاذ أمراض القلب بطب طنطا. وصلوا بعد دقائق إلى العيادة في 12 ش درب الأبشيهي، صعد العرَّاب إلى العيادة دون جهد، سوى أن ساقَيه كانتا رخوتَين. بينما ذهب الدكتور رائف يبحث عن مكان انتظار لسيارته.

***

في العيادة، جلس العراب واهنًا خجلًا، لم يُعلن عن شخصيته، ولم يحاول أن يتخطَّى دوره. حتى شاهده الدكتور أيمن من شاشة المراقبة، فطلب إدخاله على الفور، وهي الصدفة التي أنقذت حياته مرةً أخرى، فبمجرد أن رقد على سرير الكشف، أصابته سكتة قلبية في الحال.

قام الدكتور أيمن السعيد بإنعاشه، فعاد قلبه إلى الخفقان، ثم سرعان ما توقف مرةً ثانيةً، حينها هُرع الطبيب إلى جهاز الصدمات الكهربائية، وضع قطبَيه على صدره، وأصدر موجاته، فعاد القلب

ينبض. ليس طبيعيًّا أن يحتفظ طبيب بجهاز الصدمات في عيادته، لكن تصادف أنه أحضره منذ يومَين، وكان غريبًا أيضًا أن يجده مشحونًا.

في ذلك اليوم، تنقل قلبه برشاقة بين عالَمَين لأكثر من مرة. لم يكن الأمر رومانسيًّا، فدقيقة واحدة كانت تفصله عن العالم الآخر، لو تأخرَتْها زوجته لمات، ولو لم يجد الدكتور أيمن سعيد، جهاز الصدمات في عيادته، لما استطاع أن يُعيده ثانيةً.

قال عن الأمر:

- هي ما كانتش أزمة صحية، أنا مت وصحيت، فدا اللي مخلِّيني اتساءل، ليه أنا رجعت للحياة؟ أكيد لغرض كبير.. لغرَض مُهم. بس مش عارفه لسه. يمكن يكون الغرض إني أكتب حاجة، إني أعالج حد، إني أربِّي ولادي كويس.. ما اعرفش، لكن ربنا شاء إن أنا أرجع مرتين في يوم واحد. ما أقدرش أقول وعكة صحية، دا موت وعودة.

أصبح من الضروري نقل العرَّاب إلى المستشفى، لم تكن سيارة الدكتور أيمن متوافرةً، كما أن رائف ما زال بعيدًا، يبحث عن «جراج» لسيارته. في النهاية، عثروا على شخصٍ لا يعرفونه، قبل أن ينقله في سيارته. جلست زوجته تسند رأسه من الخلف، وبجانبه يصرخ الدكتور أيمن في هاتفه:

- عايز كرسي على باب القسم فورًا.

وصلت السيارة مُستشفى طنطا الجامعي، توقفت على باب عناية القلب، وضعوه على الكرسي، ودفعه الدكتور أيمن بنفسه لاهثًا. حمله الأطباء في لمح البصر إلى الفراش، وضعوا الأقطاب على صدره، وأقنعة الأكسجين، والقسطرة. بينما هو لا يُريد سوى شيءٍ واحد... «النوم».

***

داخل قسم القلب، اتَّضح اللغز. كانت عضلة القلب متضخمةً بسبب ارتفاع ضغط الدم. لكن لم تتحسَّن حالته رغم كل المحاولات، فليس ثمة طريقة تُعيده إلى البيت، حينها فكر الدكتور أيمن السعيد أن يُرسله إلى مستشفى عين شمس التخصُّصي، ليزرعوا له جهازًا حديثًا.

رتَّب الدكتور أيمن الأمر مع الدكتورة منال، كما ألغى سفره إلى إسبانيا ليتأكد أنه سيجري الجراحة بلا مشاكل. التفَّ الأصدقاء حول العراب، أخبروه بضرورة أن يذهب لمستشفى عين شمس. فوافق، لكن كان له مطلب أخير:

- **هاتوا لي محمد ومريم أشوفهم.**

جاء الصغيران إلى المستشفى. مريم بثياب المدرسة، لا تفهم ما يجري حولها، ومحمد طالب في الصف الثاني الثانوي، لا يقدر على فعل شيء. وقد جلسا يكسو الحزن ملامحهما، بينما يودِّعهما أبوهما صامتًا.

***

ركب بعدها سيارة الإسعاف، متجهًا إلى القاهرة. كانت السرينة تدوي، والأمطار تنهمِر في الخارج. هو ذات الطقس الذي سافر فيه لأول مرة إلى المؤسسة الحديثة، غير أنه اليوم مُستلقٍ على ظهره، مستبدلًا القطار بسيارة الإسعاف.

وصلوا عند المساء إلى المستشفى. بات ليلته في العناية المركزة، وفي الصباح نقلوه لغرفة الجراحة. أجرَوا له عملية قسطرة، فعرفوا أن لا مشكلة في الشرايين التاجية. حقنوه بعدها وغاب عن الوعي، وبينما الأطباء يفتحون فتحةً في صدره، ويُغلقون أخرى في فخذه. فاق بعد ساعة، وقد زرعوا في صدره جهازًا بحجم ماوس الكمبيوتر.

لم يكن الجهاز منظمًا لضربات القلب، بل أكثر تعقيدًا. كان اسمه ICD، وهو جهاز باهظ الثمن، لذلك تحملت جامعة طنطا تكاليفه. يعمل بحجارة تُستبدَل كل سبع سنوات، ومهمته أن يُراقب النبض، فإذا شعر باضطرابٍ أو ارتجاف بُطيني، أطلق صدمةً كهربيةً تُعيده للحياة. شعر به يُصدر أزيزًا أكثر من مرة، فكان يُردد في كل مرة:

- كان ممكن جدًّا أن يكون مَعاد دفني هو الأحد 3 إبريل بعد صلاة الظهر.

***

تسللت الأزمة إلى جسده، قبل موعدها بشهور. تحديدًا مع إصابته بمرض الربو، وبدْءِ تناوله الكثير من الدواء، الذي أصاب عضلة قلبه بالجنون. لم يحزن العراب لأنه أوشك أن يُودي بحياته، لكن لأن الربو اللعين، منعه أن يشارك الشباب اللحظة التي حلموا بها كثيرًا:

- **يعني انت يا بابا ما شاركتش في الثورة؟**
- **أنا ما شاركتش في أي مظاهرات للأسف بسبب ظروف صحية، لأن دي أول سنة يجي لي ربو.. فماقدرتش أنزل.. كنت خايف من الغاز، وبعدين أنا تعبت في شهر 4.. دليل يعني إني فعلًا كنت مش مظبوط.**

جاءت إجابته في أسًى. وراح يصف له كيف تابعهم في الميادين، وهم يُحققون حلمه، كأنهم أساطيره وأبطاله الخارقون. كان فرحًا بهم، وقلقًا عليهم. وحزينًا لأنه لم يؤازرهم كعادته.

***

يرى البعض أنه ساهم في تشكيل وعي الثوار، فهم الأجيال التي تربَّت على كتاباته. فعلَّمهم بحكاياته أن لا أفق للحلم، وأنه وحده هو السبيل إلى جعل الأسطورة واقعًا، يراه المصريون من الشرفات وعبر الشاشات، يتلمَّسونه في صورة شابٍّ يقف عاري الصدر في وجه مدرعة، وآخر يلتقط القنبلة المسيلة للدموع، ليردَّها على عساكر الأمن المركزي.

كان البسطاء الذين حملوا عِصيهم، ووقفوا في الشوارع ليحموا بيوتهم، وقت تركتها الشرطة، وفتح النظام سجونه، هم الأبطال الحقيقيون، هم الخارقون، الذين تصدَّوا للأشباح الهاربين من السجون.

كما كانت الثورة هي الأسطورة التي لم يتوقَّعها العراب:

- اللي حصل كان أكبر منِّي، طبعًا ما كنتش مُتخيل. أنا ليَّا كلمة شهيرة، «إنما أكره أن أكون مُحقًّا طيلة الوقت».. وأكبر مرة كنت فيها مُخطئ هي 25 يناير، لأني كنت فاكر إنها شوية شباب هيقفوا على سلم النقابة، ويبجي الأمن المركزي يفرقهم وتنتهي القصة، علشان كدا ما خدتهاش بجدية.

***

في بداية ثورة 25 يناير، كانت الصورة لا توحي بأكثر من وقفة احتجاجية، عرفها الشارع كثيرًا، سواء من الحركات السياسية، أو إضرابات عمال المصانع. بعد أذان العصر تزايدت الأعداد، واستمرَّ المدُّ والجذر حتى أذان المغرب تقريبًا، انحسر بعدها سواد الأمن المركزي أمام طوفان الشباب الذين احتلوا الميدان.

تابع الدكتور أحمد خالد توفيق الأحداث على شاشة التلفزيون، مُتمنيًا لو هدأت جذوة الربو داخله، لربما انضمَّ إلى أبنائه، هؤلاء الصبية الصغار، الذين تعلموا من رفعت إسماعيل مطاردة الأشباح، ومصاصي دماء المصريين، ومُستذئبي الحزب الوطني.

أمسك العراب سماعة الهاتف، اتصل بصاحبٍ له، أخبره أن الأمور هربت من يد الحكومة، وأن الشباب أحكموا قبضتهم على الميدان. قال صاحبه إن النظام المصري عتيق، ويستحيل حدوث ذلك بسهولة.

- بالليل اتغير رأيي تمامًا، اتصلت بيه قلت له لا كدا الحكاية خلصت. لحد ما جه يوم «جمعة الغضب» بصورة تانية خالص.. هنا الصورة اختلفت تمامًا.

***

في 2011، كان الواقع مُغايرًا لما توقَّعه في روايته «يوتوبيا»، الصادرة عام 2008، والتي حاول فيها استقراء المستقبل. متخيلًا انقسام البلاد إلى طبقتين، الأولى تعيش في مدينة شديدة الثراء، محاطة بسور، ويحرسها جنود المارينز، بينما الثانية تعيش في العشوائيات، ويتقاتل أفرادها من أجل الطعام.

كانت الرواية قاتمةً، لكن الواقع لم يكن مبشرًا، فكل شيءٍ يُنذر بكارثة، وأن الشعب قد مات، ولن ينتفِض، وقد عذبته كثيرًا، فكرة أن يموت هو أيضًا قبل مبارك، فالرئيس من أسرة مُعمرة، أو ربما لأن الرؤساء في مصر لا يموتون.

اختار العراب 2023 تاريخًا لأحداث «يوتوبيا»، لأنه يراه كافيًا، لا قريبًا ولا بعيدًا، لكن أبناءه لم ينتظروا، فقد جاءت غضبتهم في العام 2011، لذلك لم تكن ثورة جياع كما تنبَّأ، بل نموذجًا أدهش العالم، حافظوا فيه على مدينتهم، ونظفوا شوارعها بعدما تحقَّق مُرادهم.

هو يقول:

- «يوتوبيا» تنبَّأت إن الثورة هتحصل من الطبقة اللي تحت، لكن الثورة حصلت من الطبقة الوسطى، شباب الطبقة الوسطى اللي بيدخلوا «فيسبوك» و«تويتر». اللي بيسمعوا منير وعندهم

صورة جيفارا في أوضة النوم. هم دول اللي بدءوا وانضمَّ لهم الشعب بعد كدا.. فنجحت الثورة. دا طبعًا غير قصة «يوتوبيا». أنا كنت متخيل «يوتوبيا» خناقة في السلخانة، بس على نطاق واسع.

***

قبل الثورة، عارض العرَّاب نظام مبارك، كان دائم النقد للأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. كان يكتب المقال في جريدة «الدستور»، التي تميَّزت بجرأتها، وضمَّت أكبر كتَّاب المعارضة وقتها. حتى إن الشاعر أحمد فؤاد نجم قال عنها مازحًا، إن النظام لن يقبض على كتابها، بل سوف يضعون للمبنى عجلات كبيرةً، ويحملونه كاملًا إلى مبنى أمن الدولة.

عاش الدكتور أحمد خالد توفيق على يسار السلطة، هو يراه موضعَ كلِّ شريف، لا يبحث عن مصلحةٍ خاصة. لكنه لم ينسب لنفسه البطولة، كما لم يتغنَّ بشجاعته، بل يقول إنه لما خاض غمار المعارضة، كان هناك من سبقوه، هؤلاء الذين مهَّدوا الطريق أمامه. سلكوا دروبه الوعرة، فوجدوا قنابل شديدة الانفجار، نزع فتيلها علاء الأسواني، وفجَّرها عبدالحليم قنديل، وإبراهيم عيسى، وفهمي هويدي.

في «يوتوبيا» كان العراب خائفًا من المستقبل، وقد خلَّصته الثورة من خوفه، لكن تلك الطمأنينة لم تستمر سوى 6 أشهر، ثم عاد خوفه القديم، فقد تلمَّس تراجُع الأمور إلى ذي قبل، وخفوت صوت الثوار، وعلوَّ شأن المُتسلِّقين.

شعر أن قوةً ظلاميةً تعمل تحت الأرض، لتسحب البساط من تحت أرجل الشباب، لذلك نادى كثيرًا بسرعة انتخاب رئيس للجمهورية، ورأى أن المناسب لمصر، هو الذي يسمح باختيار آخَر بعد أربع سنوات:

- أنا مش مُفكر سياسي، لكن أنا شايف إن أي تجربة ديمقراطية هتصحح نفسها، إذا كان في شرط شفافية، وإذا كان في قدرة على اختيار الرئيس التالي.

***

حكى العراب لابنه عن تلاحمُ الجميع في بداية الثورة، وتفرقهم بعد فترة، فقد أصبح هناك الشباب، الذين يريدون جيفارا رئيسًا للجمهورية، كما ظهر الإسلاميون، وهم يُريدون إعادة تحرير الأندلس. بينما يتوسطهما اليساريون، أصحاب نظام ديكتاتورية البلوريتارية. وقد أضحى لكل مجموعةٍ هدف بعيد، لذلك لم يُحقق أي منهم هدفه.

تراجعت الأمور بسرعةٍ كبيرة. عاد الحديث عن قانون الطوارئ، وسادت الانقسامات بين طوائف الشعب.

وبينما محمد ينظر إلى والده مشدوهًا، قال له أيضًا:

- أنا شايف إن الثورة اتأخرت في تحقيق النتايج، فدا أدى لعصابية، أدى لأنه كله بيضرب في بعضه. أنا كنت بقول ناس بيقولوا الدستور أولًا، وناس بتقول الانتخابات أولًا، أنا شايف دلوقتي إنه بقى الشجار أولًا.

سأله «محمد» إن كانت الثورة سببًا في ذلك، فأجابه:

- لا طبعًا.. اللي حصل دا مُذهل، وهنفضل نفتكره 20 سنة لقدام. لكن الثورة ما حكمتش، ولا اللي قاموا بالثورة حكموا.

تنبأ العراب بأن «يوتوبيا» سوف تعود، إن لم تشبع الثورة أغراضها. قال إن الناس سوف يقتتلون، ويأكلون بعضهم. فقد كان الشعب أوشك على الموات، لذلك عندما ردَّته الثورة إلى الحياة، زادت تطلُّعاته. لقد صنع الشعب الصنم، نحته والتفَّ حوله، فكان بديهيًّا أن يُصدق في ألوهيته. لذلك سيُقاتل بكل قوته، وستدافع خفافيشه عن مصالحها. فقد كان حريًّا بالشعب عندما حمل معوله، أن يُحطمه كاملًا، فلو تنفَّس الصنم لكان أول من قتل صانعه.

***

خرجت زوجته وابنته من المطبخ، وقفتا تنظران إليه وقد علا صوته. سأله «محمد» مُتعجبًا، عن سِر انفعاله الشديد.

أجابه بعدما قام عن مقعده متجهًا إلى مكتبه:

- لازم كل الأصنام تموت.. حتى رفعت إسماعيل.

الفصل الثامن

جلس أمام شاشة الكمبيوتر. فتح صفحةً بيضاء، ظلَّ يرمقها لساعات، يرجو من رفعت أن ينطق، لكن قريحته لم تَجُدْ بكلمة.

هو لم يتخلص من عنَتِه بعد، فـ«سدة الكاتب» التي أصابته ليلة تلقِّيه المكالمة المشؤومة، جاثمة على قلبه. لكن عقارب الساعة تطارده، معلنةً اقتراب يوم الثلاثاء، تُخيره بين موتَين، إما موت رفعت أو وقوع المناظرة التي تُهدِّد وجوده.

لم يتأكد العراب من ظنونه، لكنها إن صحَّت، فبِمقتل رفعت سيفقد الآخر عقله، أما لو لم يكن الأمر من تدبيره، فعلى الأقل سيضيع بموته فرصة المناظرة، وسيكسِب وقتًا إضافيًا، يتدبر خلاله الأمر.

بقِي العراب في المنتصف. لا يعرف موضع خطوته، ولا من أي جهةٍ سيأتيه خصمه. فقط، وجد الحلَّ في حديثه مع ابنه «محمد»:

- **رفعت إسماعيل لازم يموت.**

***

هو الآن يجلس إلى مكتبه، يعرف ما ينوي فعله، لكنه عاجز عن ارتكابه. يضع يدَه على لوحة المفاتيح، يكتب كلماتٍ مبعثرةً، ثم سرعان ما يحذفها.

تحرك مبتعدًا عن مقعده، دار حول المكتب، مُستحضرًا صورته في خياله. نظر إليه، متأكدًا من عويناته السميكة، ونحافته الواضحة، وصلعته الخفيفة. تذكر يوم جلس مع الرسام إسماعيل دياب لرسم صورته.

يومها تخيَّله الرسام الشهير أشبَهَ بالأبطال الخارقين، بهيئةٍ قوية وبنيانٍ ضخم، لكن رفعت كان بطلًا مُختلفًا، يعتمد على عقله لا عضلاته. لذلك رسمه الدكتور أحمد على الورق بملامح تقريبية، مُستغلًا موهبته القديمة.

لم يتدخل في رسومات السلسلة بعد ذلك، بل أعطى الحرية كاملةً لـ إسماعيل دياب، الرسام الأشهر في ذلك المجال، والذي رسم حوالي 3500 لوحة، سواء على أغلفة الكتب، أو داخل أشهر السلاسل. كانت رسوماته من لحمٍ ودم، هو أيضًا من رسم «أدهم صبري» بطل «رجل المستحيل»، وغيره من شخوص «روايات مصرية للجيب» التي تعلَّق بها القراء.

كان دائمًا يقول: **اكتب إنت يا دكتور أحمد وأنا هرسم.**

ومن ثم، اعتبرَه العرَّاب رفيق رحلته، وصاحب فضلٍ في خلق رفعت إسماعيل، ودائمًا ما يقول عنه:

- **كان يحكم على القصة كلها بنظرةٍ واحدة خبيرة، وما كانش يجامل أبدًا.. ولا كان يتحفَّظ في إبداء إعجابه.. علشان كدا مش هيبقى سِر لو قلت إني كنت بكتب وأنا بتخيله بيقرا اللي بكتبه.**

***

أخيرًا استحضر صورته. وقفا ينظران لبعضهما. رآه كما عرفه: أصلع كحوض لأسماك الزينة، نحيل كالقلم الرصاص، مُعتل الصحة كمستعمرة درن كاملة. لم تغِبْ عنه غير صفةٍ واحدة، فالعجوز الثرثار، الذي لا يملُّ الكلام عن نفسه، يقف الآن صامتًا. يرجوه العرَّاب فلا ينطق.

- **اتكلم يا رفعت.. أرجوك اتكلم.**

يعرف أنه لن يقدر عليه ما لم يتكلم، لا بد أن يحكي رفعت «أسطورة الأساطير»، بتلك الطريقة فقط سيقتله. ليس هو أول من قتل بطل رواياته، جابرييل جارثيا ماركيز، قتل الكولونيل أورليانو، بطل «مئة عام من العزلة»، وبكى بعدها لساعتَين.

- جلس العرَّاب إلى مكتبه، ضغط على لوحة المفاتيح، ظهرت الأحرف السوداء على الشاشة. جُمل متفرقة، من نوعية: أنا رفعت إسماعيل»، «طبيب بشري وأستاذ جامعي». لم يدون جملةً مفيدةً. فحذف ما كتبه، ثم نظر إلى صورته، وقال له ثانية:

- **أرجوك اتكلم.**

سمع العراب صوته أخيرًا، جاءه مبحوحًا وخافتًا:

- **«أنا مرهق فعلًا.. ظللتُ أتكلم عشرين عامًا بلا توقف.. حكيت أشياء كثيرةً جدًّا. هناك بالتأكيد قصص لم أحكِها أو نسيتُ أنني مررت بها. هذا شيء طبيعي لمن عاش حياةً كحياتي.. لقد تعبت وأشعر أن جفنيَّ ثقيلان جدًّا. وأن كتفيَّ يزِنانِ عدة أطنان».**

صرخ فيه: «**سوف تواصل الكلام**».

اتضح صوت رفعت أكثر فأكثر، رأه يحكُّ رأسه، قائلًا: «**لا تستطيع إرغامي على شيء.. أنا أقوى منك في كل شيء، وقد برهنتُ عشرين عامًا على أنني أقوى وأكثر حقيقةً منك.. إن الناس يكفُّون عن الكلام عندما أدخل قاعةً مزدحمةً.. الفتيات الشابات الحسناوات يطلبنَ الزواج منِّي.. هناك أكثر من لوحة فنية تُمثلني.. رسمها أصدقائي وهناك عدة تماثيل صغيرة.. أما أنت فمجرد مؤلف، لا يعبأ بك أحد**».

عاد رفعت إلى الحديث عن نفسه، ونقده للآخرين، ابتسم العراب خلسةً، آثر ألا يتورط في حديث لا طائل منه. بل جلس سريعًا أمام شاشة الكمبيوتر، وأخذ يكتب له متحايلًا: «**لا تكفَّ عن الكلام لن أقدر على الحياة من دونك.. لقد اعتدتُ أن أكتبك**».

جاءه الصوت متثاقلًا، أشبهَ بطنينٍ في أذنه: «**لا أعرف إن كنت قد اعتدت كتابتي أم أنا الذي اعتدت أن أفعل هذا بي.. لا يهم.. أنا تعبت، أريد أن أنااااام**».

شعر العراب أن ثمة أملًا في كلامه، تذكَّر أنه شاركه جزءًا كبيرًا من شخصيته. أعطاه الملل والتوتر الداخلي ومَحبته المُفرطة للسجائر. هو أيضًا يوم واجه الموت، لم يفكر في شيءٍ سوى النوم، والآن رفعت يُرددها: **أريد أن أنااااام**.

انتصف الليل، دقَّت الساعة الثانية عشرة صباحًا، أحسَّ بأنفاسه تملأ الحجرة، وأن روحًا خفيةً تسربت إليه، حركت يده، كتب بخفة: **«أنا رفعت إسماعيل سأحكي لكم اليوم قصةً أخيرةً.. إنها أسطورتي الخاصة»**.

***

طرحه العراب في غرفة الرعاية، محاطًا بالأجهزة والخراطيم. دس المورفين في جسده، فتلاعبت به الخيالات. ارتسم المشهد في عقل رفعت. وقفت حبيبتُه «ماجي» عند رأسه متسائلةً: **يا صغيري ماذا فعلوا بك؟**

استسلم في النهاية. هو لم يفاجأ بموته، فقد رتَّب له منذ روايته الأولى، يوم زرع العراب في حنجرته مرض السرطان، وأرسله لعمل الأشعات اللازمة. يقول رفعت:

- لن أزعم أبدًا أنَّني فقدتُ صحتي فجأةً. لا أذكر نفسي إلا مريضًا.. حتى في طفولتي كنتُ أصاب بنزلاتٍ شعبية في كل لحظة.

يعرف العراب أن البشر يقتنعون بالمرض سببًا كافيًا للموت، متناسِين أن الموت في ذاته قاتل لا يحتاج لسبب، لذلك سيسوق السرطان مبررًا منطقيًّا لموت صاحبه. أما قصة الآخر وموعد المناظرة وتهديد عالمه، فسيُخفيها عن الجميع، حتى أقرب الناس إليه. هم لن يُصدقوه إن حكى لهم. وإن كانوا قد غفروا له بعض الخيال

في «أسطورة رفعت»، فالآن وقد جرى ما جرى معه؛ قد ينعتونه بالجنون؛ إن هو تفوَّه بكلمة.

بينما كان العراب يُفكر في كل ذلك، اتَّقد المورفين أكثر، خُيل لرفعت أن «لوسيفر» ينظر إلى المرض العضال داخله. منتظرًا أن يستمتع بسيناريو عذابه، عاجزًا عن لمسه ما دام كتاب «تحوت» مربوطًا إلى بطنه. اغرورقت عينا العراب بالدموع، فلم تكن رقدة صاحبه يسيرةً على نفسه. لكن عزاءه أن 82 عامًا، عمر ليس قصيرًا.

***

ظهر رفعت في قصته الأولى عام 1993، لكن تاريخ ميلاده يعود إلى 28 فبراير 1924، في قرية كفر بدر، وقد بقي بها إلى أن تُوفي والده. ثم انتقل بعدها إلى المنصورة، ليعيش مع خاله وأولاده، حتى كبر ودخل كلية الطب، وأصبح دكتور أمراض الدم.

أعتاد العراب أن يستمد شخصياته الروائية من الحياة، فهو يراها «غصنًا مُثقلًا بالشخصيات، وكل ما عليك أن تقتطف بعضها». يقول: **سر نجاح الشخصية إنك بتاخد نمط في الحياة إنت عارفة، وأنا مؤمن إن الكاتب زي الكشاف. وإن عنده انفصام في الشخصيات جواه.. فالبطل ذو الألف وجه دا جوايا. أنا جوايا فارس، وجوايا فتاة ليل، وجوايا تاجر مخدرات، وواحد صايع.**

كذلك استعان العرَّاب ببعض صفاته، في بناء شخصية «رفعت»، كما استلهم تكوينه النفسي من صديقٍ له جرَّاح عظام، اسمه أيمن خليل. أيضًا وضع له صورةً ثلاثية الأبعاد، تضمنت نشأته وأسرته،

وجيرانه وحبيبته السابقة والحالية. جعله لا يملك عيادةً خاصةً، لأنه لا يرى في نفسه الخبرة الكافية.

شيئًا فشيئًا اتَّضحت معالم الشخصية، وأصبح لدى القراء إرث معرفي، يتوقعون من خلاله ما سيفعله ساعة النوم، أو لحظة الموت. مع الأيام أصبحت الشخصية أكثر مصداقيةً من مؤلِّفها: **أنا كنت شايفه في ذهني الراجل الـ mentor.. اللي عنده خبرات كتيرة جدًّا، وبيعلِّم البطل. عجبتني الشخصية دي، وأضفت لها بعض اللمسات.. زي إنه عجوز، ضيق الخلق، عصبي جدًّا..**

***

عصفت الذكريات بصاحبها دفعةً واحدة، غير أنه كلما لاحقته الساعة نحو النهار، تذكر موعد المناظرة، فأراد حمل رفعت إلى موته سريعًا.

***

جاءت ممرضة إلى سرير «رفعت»، حقنته بسائلٍ ما، فزادت هلاوسه. رأى الساحر المفزع، المُسمى «كاتيوم»، الذي تقول الأسطورة إنه رجل عادل، لذلك اختاره ليُعطيه كتاب «تحوت»، لكن ذلك بشرط أخير، أن يُحرر ابنه.

قال رفعت لـ «كاتيوم»: **أرسله إلى حيث يستحق، إلى الأرض ليصير بشريًّا كباقي البشر أو اقتُله.. فقط حرِّره من هذا الجحيم..**

حكى العراب قصة ذلك الابن في «أسطورة رونيل السوداء». نعم، لرفعت إسماعيل ابن. حدث ذلك عندما تزوَّج من الساحرة رونيل، تحت تأثره بوصفة حُب سحرية، جعلته دائم الانبهار بها. فأنجب منها طفلَه، الذي كان ينمو بسرعةٍ غير طبيعية. أما اختفاؤه فكان عندما حاولت رونيل قتل رفعت وطفله، غير أن ماجي أنقذت رفعت، واختفى الابن بعد احتراق الساحرة.

وافق رفعت أن يتخلَّى عن كتاب «تحوت» رغم معرفته بأن ذلك يعني موته، لكنه قبل بذلك في سبيل حرية ابنه، في سبيل أن يشفي جرحه الدفين. لم يكن رفعت ممن يخافون الموت، لكن جلَّ خوفه أنه لم يكن مُستعدًّا له، هكذا قال لحبيبته ماجي. ثمة خوف آخر شاركه فيه العرَّاب، فكلاهما يخافان الألم، ويتمنَّيان موتًا سريعًا، كأن ينقطع النور فجأةً.

نفذ «كاتيوم» مطلب رفعت. صرخ بكلمات قوطية، فنطق الرعد وتفجَّرت النيران، وجاءه صوت الابن يُعلن تحرُّره. دعا والده أن يذهب معه، لكن رفعت طريح الفراش، ابتسم صامتًا، هو يرى موته، ويدرك فوات الأوان.

***

عندما وضع العراب فكرة السلسلة، لم يستهدف إفزاع الشباب، بل تشويقه ودفعه للتأمُّل والتفكير. رغم ذلك، كثيرًا ما أصابهم الخوف، فلم يقرأها البعض ليلًا. حتى إنَّ سهم الخوف ارتد إلى صاحبه، فلم يكشف عن عددٍ من القصص لتشاؤمه منها، أو لأنها كئيبة مُقبضة للنفس.

كانت علاقته برفعت تبادليةً، بمعنى أن يقود كلٌّ منهما الآخر. في البداية يشرع في الكتابة، وسرعان ما تتحكَّم الشخصية في الأحداث. عاش العرَّاب معه أساطير كثيرة، وجد بعضها حقيقيةً. أما التي تعارضت مع الدِّين أو العلم، فقد بحث خلفها، ووجد أن لا أساس لها من الصحة.

أيضًا لم يقترِب من الجنس في سلسلته، هو لم يرفض وجوده في الأدب بشكلٍ عام، لكنه يُدرك طبيعة السنِّ المخاطب في قصصه، ويشعر بقدرٍ من المسؤولية تجاهه. وعندما كتب رواية «السنجة»، مُتضمنةً بعض الإيحاءات الجنسية، نصح الصغار ألَّا يقرءوها: **أنا بلتزم بأخلاقياتي.. وهي بتتسرب خلال العمل. لأن أنا بخاطب سنِّ حساس. أنت تطمن على أختك وهي قاعدة بتقرا.. لأن إنت بتشوفها قاعدة مع عمو أحمد خالد توفيق.**

***

أحب العراب رفعت إسماعيل حبًّا شديدًا، هو بساطه السحري الذي حملَه إلى قلوب القراء، أيضًا من بين شخوصه الروائية؛ يراه شبيهًا بالحذاء القديم، كلما ذهب بعيدًا عنه ليكتشف قوالب جديدةً، رجع إليه فوجده مريحًا. فهو يعرف طريقه، يعرف متى يبدأ وكيف يصِل، وأين ينتهي.

فكر فيما سيقوله لوسائل الإعلام والقراء؛ إذا ما سُئل عن موت صاحبه. رفع يده عن لوحة المفاتيح، بحث في عقله عن أسبابٍ مُقنعة، قال في نفسه، إن ثمة أمورًا حتَّمت موته. مثلًا قد استنفد الغرَض منه،

استنفد أفكاره، التي أضحت بطبيعتها شحيحةً، لا سيما بعدما أطلع القراء على قصصه، وأفكار غيره من كتَّاب الغرب، وشاهدوا الأفلام المُمكنة، التي صعَّبت إدهاشهم. راجع نفس المعنى في عقله لمرات، ثم ردَّد بصوتٍ عال، قبل أن يعود إلى الكتابة، وكأنه يتأكد من إتقان مُبرره:

- **حسيت إن رفعت لو عاش شوية كمان الناس هيزهقوا منه، فقررت إنه ينتهي نهاية تبقى عالقة في الذاكرة.. أول بطل يموت بجد.. أنا عارف إن أنا أكرمته بدفنه، فالناس هتفضل فاكراه.**

***

دقت الساعة الثالثة صباحًا، بينما العراب جالس إلى مكتبه، ينهج كمن يصعد جبلًا، يعلو صدره ويهبط سريعًا، فليس سهلًا أن تنتزع جلدك الحي، أن تقتل، حتى لو كانت فكرةً في رأسك. في الأخير، أنطقه الشهادتَين، وبينما يرتجف رفعت في فراشه، ويُبلل العرق وسادته، همست ماجي في أُذنه: **للأبد؟**

- **ماذا؟**
- **هل ستزور أحلامي للأبد؟**
- **وحتى تحترق النجوم.. وحتى تأتي لي هناك.. آنذاك عِديني أن تكوني لي.. سوف نظلُّ معًا للأبد لا يُفرقنا شيء.. هيا.. لا تضعفي.. عديني.. عديـ...**

وقف العراب عن مقعده. انخرط في بكاء، نظر حوله كمن يبحث عن مخرج، ولا مفر، هو الليلة، إما قاتل أو مقتول. مسح بكفِّه على وجنتَيه، جلس ثانيةً، مدَّ يدَه إلى لوحة المفاتيح. تحركت الأحرف السوداء، ردَّد معها بصوتٍ عال: **في الساعة الثالثة صباح يوم الثلاثاء 8 أغسطس، توقف قلب الدكتور رفعت إسماعيل عن الخفقان.**

***

في العدد خمسين من السلسلة، هدَّد العرَّاب بموت رفعت إسماعيل، كما أعلن قبل ذلك، أن العدد سبعين سيكون النهاية، لكنه تراجَع في المرتَين. أما تلك المرة، فقد أقسم أن موته نهائي، وأنه لن يُعيده ثانيةً إلى الحياة، لكنه يُدرك أن حنينًا قد يُصيبه، لذلك لم يغلق الباب كاملًا، بينهما.

لم يضع العراب احتمالية إصابته بغيبوبة، وأنه قد يُفيق بعد فترة، لكنه بعدما ترك جهاز الكمبيوتر، مُتجهًا ناحية الباب. عاد ثانيةً ليصنع بابًا خلفيًّا، يدخل منه إذا ما احتاج صاحبه.

يقول الدكتور أحمد خالد توفيق: أنا عملت حيلة برضو.. إن كل شوية جايز نلاقي له مذكرات لم تُنشَر، ممكن نقدمها من وقت للتاني في أعداد خاصة.

***

أغلق العراب جهاز الكمبيوتر، بعدما حفظ ما كتبه. قام من مقعده، متجهًا إلى النتيجة المُعلقة على الجدار، انتزع ورقة يوم الإثنين، فظهرت له ورقة الثلاثاء، لم يعبأ بما كتب عليها، لكنه ظلَّ مُمسكًا بها في يد، وحمل بالأخرى سماعة الهاتف.

لم يشغل باله بمصير ذلك الآخر، كما لم يتكبَّد عناء البحث عنه، هو يعرف أن بمقتل رفعت، العقل المُدبر لتلك المؤامرة، لن يجد خصمه بدًّا من الرجوع إلى عالمه.

أحسَّ أن ثمة كلمةً أخيرةً تكتم أنفاسه، ضغط على مفاتيح الهاتف المنزلي. بعد لحظات، جاءه صوت أبهج أديب، مَشوبًا بالنعاس:

- **آلو.. مين؟**

ابتسم بجانب فمه، وقال في زهوٍ وثقة، لا يُناسبان الموقف:

- **أنا دكتور أحمد خالد توفيق.**

***

قبل النهاية بقليل..

بعدما وضع العراب سماعة الهاتف. خرج من مكتبه إلى الصالة، يتخبط بين شعوره المؤقت بالنجاة، والحزن لموت صاحبه. كان يقصد غرفة نومه، علَّه يستريح قبل طلوع النهار. المسافة من المكتب إلى غرفته ليست طويلةً، هي خطوات معدودات، لكن ما رآه أوقفه مذهولًا.

- **ورقة النتيجة.**

قالها العراب وهو يمر بجانب الطاولة. لمح طرفها بين أوراق التاروت. لم يكن ثمة ما يعرف منه أنها ورقة الثلاثاء المفقودة. لكن وجودها في ذلك الوقت تحديدًا، جعله يوقِن ذلك. ارتعشت يدُه وهو يمسك بها. نظر بعيدًا، كأنه يخشى ما بها أو يتوقعه. رفعها إلى عينَيه ليقرأ المكتوب أسفلَها، ردَّده بصوتٍ عالٍ مُرتبك.

«بك أسعد، ولك قلبي يطرب».

لم يكن في حاجة لتوقيع لوسيفر، ليعرف أنه ما كان غير أداة لقتل صاحبه. هو يعرف خطه الأسود، ويسمع صوته الأسود، لكنه تعجَّب من نفسه؛ كيف لم يعرفه يوم جاءه متنكرًا عند استاد طنطا قبل أسبوع، وقد قرأ أفكاره بمجرد النظر إلى عينَيه.

الفصل التاسع (خارج النص)

مؤخرًا، صار العراب أكثر وهنًا، مجهدًا طوال الوقت، يشعر بدوار، وصعوبة في التنفس. قبل 6 أشهر، تلقَّى العلاج داخل مركز القلب بالمحلة، ومنذ شهرين، أجرى فحوصات طبيةً استغرقت بضعة أيام.

أيضًا، تُتابع حالته منذ سنوات، الدكتورة هيام الدمنهوري، المتخصصة في «كهربة» القلب، وقد رأت ضرورة تغيير جهاز ICD، المزروع في قلبه منذ عام 2011، والذي تُستبدَل بطاريته كل 7 سنوات.

تم بالفعل استيراد جهاز من الخارج، لكنه لم يخرج من الجمارك، ومن ثم، رأت الطبيبة ضرورة إجراء عمليةٍ كيٍّ في عضلة القلب، للقضاء على رعشةٍ يُعاني منها، تُسمَّى «الرجفان»، على أن يُستبدَل الجهاز بعد أسبوع.

***

في العاشرة صباح يوم الإثنين 2 أبريل 2018، وصل إلى مستشفى عين شمس التخصُّصي. كان قد خرج من بيته في السابعة صباحًا، مصطحبًا زوجته وشقيقتها، لكنه لَمَّا وصل قبل الطبيب، شغل انتظاره في مُقاسمة من حوله الضحكات، ومبادلتهم النكات.

حضر الأطباء، أجرَوا الفحوصات، فوجدوا نبضَه يسير بشكلٍ مُتسارع، نتيجة عدم انتظام ضربات القلب البطيني. كان عدد النبضات فيه يصل لـ100 نبضة في الدقيقة، تأكدوا أنه يُعاني «رجفان القلب».

اختار الأطباء طريقةَ الكيِّ بالقسطرة، أي باستخدام أنابيب صغيرة جدًّا ومرنة، يتم إدخالها عبر الأوعية الدموية الموجودة في أعلى الفخذ أو الرقبة. ثم تُوجَّه إلى القلب، وصولًا إلى المنطقة التي تُسبِّب عدم انتظام ضرباته.

بدأت العملية، في تمام الساعة الواحدة ظهرًا، حقنوه بمخدرٍ موضعي، وبأدوية جعلته شِبه نائم. يستغرقون عادةً من ساعتَين إلى أربع ساعات، لكن الأطباء انتهوا في قرابة ٥٠ دقيقة، ثم حملوه إلى غرفة الرعاية.

بعدها بقليل، زارته الدكتورة هيام الدمنهوري. أجرت له عدة فحوصات، لتطمئنَّ على سلامته، ثم نظرت إلى الفريق الطبي قائلةً: العملية عدت على خير.. لكن ممكن الرعشة ترجع له مرة تانية.

***

مكتبة
t.me/soramnqraa

في السادسة والنصف مساءً اهتز جفناه، كان وجه زوجته أول ما رأى، ابتسمت له:

- **حمد الله على السلامة.**

- **الله يسلمك.**

أجابها بصوتٍ خفيض. صمت قليلًا، وسرعان ما استردَّ وعيه كاملًا. أسند ظهره إلى السرير، وارتدى ملابسه، وبدأ كلامه بطلبٍ وحيد: **عايز أشرب شاي.**

خرجت زوجته، ثم رجعت بكوبٍ بلاستيكي، أخذ منه رشفةً، ثم داعبها بسؤال عن ابنه:

- **هو محمد دخل الجيش ولا إيه؟**

لم يتخلَّ العراب عن سُخريته، حتى في أحلك الظروف. فلم يكن ابنه حاضرًا حينما أفاق.

يقول محمد:

- **أنا كنت في تدريب في شركة أدوية في القاهرة.. قلت لهم أنا هخَّلص قبل ما تبدءوا العملية وهاجي لكم. بعدها والدتي كلمتني قالت لي إنهم خلصوا وكل حاجة تمام.. وخلاص طالعِين ومروَّحين طنطا. قلت الحمد لله. هقابلكم هناك بقى في «الويك إند».**

***

تحدث الدكتور أحمد مع زوجته لنصف ساعة، عن أمور ينوي القيام بها. ثم سأل فجأةً عن نظارته.

قالت زوجته:

- **استنى هشوفهالك بره.**

بعد دقائق، رجعت الدكتورة منال إلى غرفته، وقبل أن تنطق بكلمة، قال إنه يشعر بدوار شديد:

قالت:

- **استنى أجيب لك أوكسجين.**

وضع يده على قلبه، تألَّم بشدة، انتفخت عروق وجهه، فتح فمه مُسترجيًا الأكسجين. صرخت الدكتورة منال:

- **إلحقونا.. إلحقونا بسرعة.**

دخل الأطباء على صوتها، لم يتأخَّروا لحظةً. كانوا أسرع من الأكسجين الواصل إلى قلبه. عرفوا الأعراض الواضحة. كان يُعاني اضطرابًا في ضربات القلب البطيني، نتيجة جلطة مفاجئة في القلب، أدَّت لضيق الشرايين التاجية.

حاول الأطباء إنعاش القلب بالكهرباء. وبينما تقف الدكتورة منال خارج الغرفة، تستند إلى كتف شقيقتها، مرَّت ساعة دون استجابة، حقنوا قلبه بـ إدريالين، لعل الأوعية الدموية التي لا تتَّصِل بالقلب تنقبض؛ فيصل أكبر قدْر من الدم إليه، لكنه لم يستجب أيضًا، توقف القلب تمامًا!

أغمض العرَّاب عينه فجأةً، تفتحت عين زوجته على الحقيقة، أنكرتها، ثم سرعان ما انفجرت باكيةً. أحسَّت شقيقتها أن ثمة مسؤوليةً تقع عليها، هاتفت شقيقها، تلك الأمور تحتاج إلى أكثر من سيدتَين، أبلغته الخبر:

- الدكتور أحمد مات.

تماسكت الدكتورة منال قدْر استطاعتها، خرجت كلماتها متقطعةً، التقطتها شقيقتها من بين الدموع، وأبلغتها لشقيقهما:

- بلاش تعرَّفوا محمد علشان ما يسوقش بسرعة.. قولوا له والدك تعبان شوية بس.

***

كان «محمد» قد وصل لتوِّه إلى الفندق، حيث إقامته في القاهرة. اتصل ابن خالته على هاتفه المحمول، أجابه، فجاءه الصوت متسائلًا:

- **إنت فين؟**

- **في الفندق.. ليه؟**

- **مافيش.. الدكتور أحمد تعبان شوية.**

- **تعبان إيه يا ابني!.. أنا كلمتهم وقالوا إنهم خلصوا وروَّحوا.**

أغلق محمد الهاتف قلقًا. وقبل أن يُنزله عن أذنه. كان اسم خاله ظاهرًا على شاشته.

- **إنت فين؟**

- **في الفندق.**

- **طيب خليك هعدي عليك أخدك.**

لم يدُر الموت بخلده، لكنه أحسَّ أن ثمة شيئًا خطيرًا وقع. انهارت أعصابه، فلم ينتظر وصول خاله ونزل سريعًا. ركب سيارته مُتجهًا إلى المستشفى. لا يعرف الوقت الذي قضاه ولا الطريق الذي قطعه، حتى وجد نفسه داخلها. ركن سيارته في أقرب مساحةٍ فارغة. ومشى تائهًا، يتخبَّط بين العيادات والأقسام.

رأى «محمد» والدته تستند إلى الجدار، تحتضِن ملابس والده باكيةً. نظر إليها مذهولًا، نطقت بإيماءة على وجهها، تعني «خلاص».

يقول محمد:

- دخلت قعدت معاه وأنا مش مصدق، حسيت كإنه مريح شوية.. لما طلعت ولقيت قرايبنا وتامر إبراهيم.. ولقيت ناس كتير عارفهم وتلامذته.. ابتدا الموضوع يترسخ شوية في ذهني.

كان أحمد مراد أول من وصل إلى المستشفى. قرأ شائعة موته على مواقع التواصل، فلم يُصدق. اتصل على هاتفه فلم يُجبه، اتصل على هاتف ابنه فلم يرد، لجأ إلى آخِر ثغرة يمرُّ منها إلى العراب. يقول:

- بعت له ميل، لما ما ردش عرفت إنه مات!

قاد سيارته بجنون، لا يعرف إلى أين.. لكن يجب أن يكون بجانبه الآن اصطدمت سيارته بأخرى. نزل مُعتذرًا لصاحبها، أعطاه رقم هاتفه ليتواصلا، ثم أكمل سيره. دخل 3 مشارح باحثًا عنه، حتى وصل إلى مستشفى عين شمس، سأل عامل المشرحة عنه، فأكد وجوده. طلب رؤيته، ففتح له دُرج الثلاجة. رآه بنفس طلته الوديعة، هربت دموعه، في الوقت الذي كتب فيه الدكتور أيمن الجندي على «فيس بوك»:

«خبر وفاة الدكتور أحمد خالد توفيق بلغني الآن أعتذر عن عدم الرد على أي مكالمة هاتفية فأنا لا أستطيع استيعاب الخبر».

***

انفجر خبر وفاة الدكتور أحمد خالد توفيق كقنبلة، تمدَّد حتى غطى كل شبر في مصر، وربما الوطن العربي. اعتبره البعض كذبة أبريل. من يُصدق موت جزء من طفولته، أو أن حجرًا في جدار العمر تصدَّع، سقط دون انتباه.

مات العراب قبل أن يُحقق حلمه. لم تقبله السينما في حياته. رفضت من أحبَّها، وقبلت من هُم دونه. في كل مرة كان يقف على شفا حفرة منها، ثم يرجع خالي الوفاض.

في مصادفة درامية، توفي يوم أخذت خطوة جدية لتنفيذ عملٍ درامي، مُستوحًى من قصةٍ له. يومها دُعي الكاتب محمد هشام عبية إلى اجتماع مع إحدى الشركات؛ للعمل على إنتاج مسلسل «زودياك» عن قصة «حظك اليوم». ويحكي «عبية» أن العراب يوم عرف أنهم اشتروا حق المجموعة القصصية، علق ضاحكًا أن ذلك مُستحيل، وأنه حتمًا ستحدُث كارثة.

كان «عبية» جالسًا مع مجموعة من كتَّاب السيناريو، وبينما هم يرسمون الشخصيات ويضعون خطة العمل، صدقت نبوءة العراب:

- أنا عادةً بعمل الموبايل سايلنت في الاجتماعات. فجأة لقيت سيل من الرسايل جاي على «فيس بوك» ومن ناس أنا أصلًا

ما أعرفهمش، وكلهم بيسألوني: هو خبر الدكتور أحمد خالد توفيق حقيقي.

في البداية، تجاهل الرسائل، حتى اتصل به رئيس تحرير جريدة ليتأكد من صحة النبأ:

رديت قال لي دا مكتوب إن دكتور أحمد خالد توفيق توفى. اتهزيت جدًّا، واستغربت، واتأكدت لما لقيت الدكتور أيمن الجندي كاتب الخبر فعلًا.

ترك «عبية» الاجتماع الأقرب إلى حلم العراب، خرج يبحث عما ينفي الخبر، لكن أكده الجميع. تعجب من موته في ذلك اليوم تحديدًا. أراد إبلاغه أن الأمر جدِّي، وأنهم وضعوا خطةً لتحرير شخوصه إلى الشاشة، لكنه رحل قبلها، وأصر «عبية» على استكمال حلمه، حتى عرض «زودياك» في مايو 2019، كأول عمل مُستوحًى من قصة للعراب..

في الوقت ذاته، كان أفراد أسرة العراب يتماسكون لطمأنة بعضهم بعضًا. زوجته تطلب ألا يعرف «محمد» قبل أن يصل إلى المستشفى. و«محمد» يطمئن شقيقته «مريم» التي كانت في البيت، تتابع مواقع التواصل الاجتماعي:

- أختي كانت لوحدها في البيت، وكانت بتتابع السوشيال ميديا.. كلمتها قلت لها دي إشاعة ما تقلقيش، لحد ما جيت طنطا وقلت لها.

***

«ستكون مشاهد جنازتي جميلةً ومؤثرةً، لكني لن أراها للأسف، برغم أنني سأحضرها بالتأكيد».

طنطا مدينة صغيرة، أمعاؤها ضيقة، لكنها اليوم اتسعت. مشى في شوارعها الآلاف، جاءوا من كل المحافظات تقريبًا، يذرفون الدمع، ولا يخجلون من حزنهم، هم يصنعون لوحةً عظيمةً من الوفاء، لرجلٍ أفنى عمره في سعادتهم. حتى الأشجار أظنها بكت، فلا يموت في المدينة رجل مثله كل يوم.

صلَّوا عليه في مسجد «السلام» بمنطقة المرشحة، امتدَّت عشرات الصفوف إلى خارج المسجد. بعد الصلاة، حاول البعض حمل جثمانه على أكتافهم. اعترض آخرون خشية الزحام، وضعوه داخل سيارة الإسعاف. تحرك سائقها بصعوبة. شيَّعَه الآلاف من طلبة الجامعة، وقرائه، وأصدقائه، وأهله، وزملائه، وعمال الجامعة والمستشفى، وعمال النظافة، ومن كان يُحسِن إليهم في الخفاء.

اعتقد البعض أن شخصيةً سياسيةً كبيرةً تُوفيت، لم يُصدقوا أنه مجرد كاتب، حتى بعض الإعلاميين أنكروا عليه تلك المحبة، تساءلوا من هو؟ فخرج بعض أبنائه على شاشات التلفزيون ليُجيبوا عنه.

***

هيَّأ عمال المقابر مرقده، جهَّزوه وانتظروا. هذا عملهم الذي اعتادوا عليه، لكن ذلك الحشد لم يَعهدوه من قبل. انتظروا طويلًا، الطريق من مسجد السلام في منطقة المرشحة، إلى مدافن العائلة ليس بعيدًا، لكنها القلوب التي تزاحمت، والخطو الذي ثقل، فمن سيُسرع إذا ما حمل طفولته إلى القبر.

لم يُنافس العراب في جنازته، سوى جنازة صاحبه رفعت إسماعيل وقد اعترض القراء على قراره بموت العجوز، هاجموه، وطالبوه أن يتركه، لكنه رأى في موته رحمةً، ولا رجعة في قراره.

أقيم لرفعت سرادقات العزاء على مواقع التواصُل، نعاه الكثيرون، كتبوا عن ذكرياتهم وسهراتهم معه، ظلَّ حديث مواقع التواصل وبرامج «التوك شو» لأيام. أيضًا كان موت الدكتور أحمد خالد توفيق صادمًا، ومفاجئًا للجميع، بكاه الصغار، والشباب، واعترف الكبار بفضله، حتى قالت وزيرة الثقافة المصرية «فقدنا روائيًّا عظيمًا طالما أثرى الحياة الثقافية في مصر والوطن العربي».

تُوفي الدكتور أحمد خالد توفيق يوم الإثنين 2 أبريل، ودخل إلى قبره يوم الثلاثاء، أيضًا تُوفي رفعت يوم ثلاثاء. كأن ثمة علاقة بينهما حتى في يوم وفاتهما.

***

رقد العراب في قبره، بينه وبين الشباب حجاب وباب، لكن الجمع لم ينصرف، لم يكن سهلًا على الذين تربَّوا على قصصه، أن يتركوه. جلسوا يقرءون له القرآن، يدعون له، يصلبون عيدانهم الخضراء على قبره، ولو لحظةً أخيرةً، يسألونه عما يهديهم السبيل، ولَمَّا كانت الكتابة هي لغة الحكي بينهم، فقد جاء اليوم دورهم.

انتزعوا من كراريسهم أوراقًا بيضاء، كتبوا مقاطع من قصصه ومقالاته. كتبوا رسائلهم إليه، وعلقوها على قبره. لم ينسَوا أيضًا وصيته: «أريد أن يكتب على قبري «جعل الشباب يقرءون». كتبوها بخطٍّ عريض، وعلَّقوها كـ «شاهد قبر».

تابعهم عمال المقابر، تعجَّبوا من حزنهم، ومحبتهم. راقبوهم وهم يرحلون تباعًا، يجرُّون أرجلهم كأنهم هرموا فجأةً. يستند كل منهم إلى كتِف الآخر، حتى إنك لا تعرف من يؤازِر من، فجميعهم لهم نصيب في العرَّاب..

***

انصرف الجميع، إلَّا حراس المقابر، جلسوا يتعرفون عليه. يقرءون ما كتب في ورقةٍ معلقة:

«وداعًا أيها الغريب..

كانت إقامتك قصيرةً، لكنها كانت رائعةً.

عسى أن تجد جنتك التي فتَّشتَ عنها كثيرًا.

وداعًا أيها الغريب.

كانت زيارتك رقصةً من رقصات الظل.

قطرة من قطرات الندى قبل شروق الشمس.

لحنًا سمعناه لثوانٍ من الدغل،

ثم هززنا رءوسنا وقُلنا إننا توهَّمناه.

وداعًا أيها الغريب،

لكن كل شيءٍ ينتهي!».

مكتبة
t.me/soramnqraa

صدفةٌ من صدفِ الروايات هو حالي مع دكتور أحمد ... أقابله زميل عمل وواحدًا من أعمدة مجلة «باسم» حينما كنت رئيساً للتحرير، وكواحدٍ من قرَّائِه، لكم أن تتخيَّلوا حجم سعادتي بتلك الفرصة التي جمعتني به، لم نعرف حينها أنه ليس الشكل الوحيد لمعرفتنا. تمرُّ السنون لأرتدي البدلة الكحليَّة التي نسجها بحروفه في خيال ملايين القرَّاء، وأكون صوتاً لأكثر شخصيات دكتور أحمد حياةً وشهرةً (د. رفعت إسماعيل). ومن بعدها صوتاً يقدِّم سيرته الشخصيَّة في النسخة المسموعة من الكتاب الذي بين يديك الآن.

ولا يسعني سوى الاستعانة به شخصيًّا لاختيار كلماتٍ تليق بغلافِ كتابٍ يتحدَّثُ عنه.

أحمد خالد توفيق: «يكفيني شخص واحد يندهش بي كل يوم، كما لو أنني أعجوبة ... يسمع أحاديثي بكل شغفٍ، يقرأ أحرفي كما لو أنها قصيدة».

أحمد أمين

مكتبة
t.me/soramnqraa

Listen to the ostura on Storytel
storytel original

9 789778 202298
KAYAN PUBLISHING